المقالة فى الأدب العربى

الأستاذ الدكتور
طلعت صبح السيد

الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين وبعد :

فهذا كتاب أفردناه للحديث عن : " المقالة في الأدب العربي " وهو مؤلف نتناول فيه فن المقالة والتيارات التي تنازعته ، وما حدث فيه من تأثير إن بأدبنا العربي ، أو بالآداب الأوربية الحديثة ، وليس من شك في أن هذا جانب له أهميته الكبرى في الكشف عن نواحي الأصالة في أدبنا العربي من جهة ، ثم في الكشف عن طبيعة التجديد واتجاهاته من جهة أخرى .

وفصول الكتاب تستعرض مفهوم المقالة ، وتستقصي بواكيرها ، وتفصل القول في تصنيفاتها المختلفة ، وما لها من خصائص وسمات جعلتها قادرة على أن تنتقل من بيئاتها الإقليمية المحدودة إلى بيئات أخرى أرحب وأوسع .

هذا ونسأل الله التوفيق والسداد، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله وآله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين .

الأستاذ الدكتور — **شعبان ١٤٢٧هـ**

طلعت صبح السيد — **المنصورة**

سبتمبر ٢٠٠٦ م

مدخل تمهيدي

المقال عند دارسي الأدب

مصطلح وتعريف:ـــ

لا بد ونحن نستعرض هذا الموضوع أن نتبين المراد من كلمة " المقالة " فى اللغة ، وأن نشير إلى أصل الكلمة فى كلام العرب .

وهناك تعريف معجمى للكلمة ، يتناول موضوع المقالة ، ووسيلة نشرها فقط ، وهناك تعريف آخر يتناول أسلوب المقالة ، وموضوعه ، وطريقة عرضه ، والهدف منه .

والحقيقة أن الكلمة تعود إلى مادة " قال " ومن مصادرها : مقالة ، ومقالا . وأطيب ما يبتهل به القول فى ذلك قول الله تبارك وتعالى :

(ومن أصدق من الله قيلا) [١] .

وقوله تعالى :

(ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين) [٢] .

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٢٢ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٣٣ .

وقد وردت تعريفات كثيرة لمعنى القول عند اللغويين ، يقول صاحب القاموس المحيط [١] :

" القول الكلام ، أو كل لفظ مذل به اللسان تاما أو ناقصا ج أقول جج أقاويل ، أو القول فى الخير ، والقال والقيل والقالة فى الشر ، أو القول مصدر ، والقيل والقال اسمان له ، أو قال قولا ، وقيلا ، وقولة ، ومقالة ، ومقالا " .

وجاء فى لسان العرب : (قال يقول قولا وقيلا وقولة ومقالا ومقالة) [٢].

وورد فى مختار الصحاح : (قال يقول قولا وقولة ومقالا ومقالة . ويقال : كثر القيل والقال ، وفى الحديث " نهى عن قيل وقال " وهما اسمان)[٣].

وفى المنجد : (يقول قولا وقيلا ومقالة : تلفظ " تكلم "... والمقال : مصدر القول ، والمقالة : القول " القطعة من الكتاب " [٤].

وقد وردت كلمة (المقالة) أو (المقال) فى شعر كثير من شعراء العرب ، وانظر إن شئت أشعار النابغة الذبيانى فى الاعتذار، أو أشعار شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت ، أو

---

(١) الجزء الرابع ص ٤٢ . دار الجيل .

(٢) لسان العرب : (قول) .

(٣) الرازى ، مختار الصحاح ص ٥٥٦ . دار الفكر طبعة ١٣٩٨ هـ .

(٤) المنجد ص ٦٦٣ – مادة (قول) .

أشعار الحطيئة التي يخاطب فيها أمير المؤمنين عمر بـــن الخطـــاب رضى الله عنه .

وعلى هذا فالكلمة شائعة الاستعمال فى القديم وفى الحديث ، كما شاعت فى الأدب العربى شعرا كان أم نثرا ، يضاف إلى ذلـــك أنها دخلت كثيرا من التعبيرات التى نستخدمها ونسمعها كـــل وقـــت وكل حين ، فيقال مثلا : (مقالة صدق) و (مقالة حق) ، و(مقالة خير) ، و (مقالة شر) ، و (مقالة سوء) ، و (لكل مقام مقال)، وغير هذا وذاك من المصطلحات والتعبيرات التى شاعت على ألسنة الخاصة والعامة على السواء .

وقد وردت تعريفات متعددة لكلمـــة (المقالـــة) ، وجـــاءت جميعها تتفق ووجهة نظر الأدباء والنقاد من جهة ، وتتفق من جهـــة أخرى مع تطور هذا الفن ، واختلاف المـــذاهب فـــى النظـــر إلـــى ميادينه، ومناحى التجديد فيه .

وأيا ما كان الأمر فنحن لا نستطيع أن نستعرض كـــل تلـــك الآراء التى دارت حول تحديد مفهـــوم المقالة ، وما لها من ميادين ، وبخاصة أن كثيرا مـــن هـــذه التعريفات إنما هى عالة على ما ارتآه أدباء الغرب ونقاده [١] .

---

(١) انظر ما قاله فى هذا الشأن العقاد ، وغيره من الكتاب .

أصولها:ـــ

والمقالة لا بد أن تكون فى أسلوب جــزل رصـــين ، حتـــى تصيب بألفاظها وأسلوبها مواقع الشعور عند المتلقين ، ولا بد كذلك أن يكون لصاحبها بصيرة نافذة تجعله ينتخب ألفاظه ، ويختار معانيه ؛ ولعله لهذه الأمور قال الدكتور / زكى نجيب محمود فـــى كتابـــه (فنون الأدب) عن المقال : " إنه فى صميمه قصيدة وجدانية سيقت شعرا " .

والحق أنه لم يعرف الأدب العربى القديم المقالـــة بالصـــورة الفنية التى نعرفها بها فى وقتنا الحاضر ، وإنما كان عندهم فن نثرى كانوا يسمونه (الرسائل) التى تتناول موضوعا بالبحث فى أسلوب عربى أصيل ، كتلك التـــى كان يكتبهـــا الجـــاحظ ، وأبـــو حيـــان التوحيدى ، وغيرهما ، وكانوا يتناولون فيها نظرات فـــى معتقـــدات ومذاهب مختلفة ، أو مشاهدات عامة ، أو قضايا فكرية أو اجتماعية ، وقد يتخطى هذا إلى ما يتصل بالحياة من أمور الخير أو الشر .

أما فى العصر الحديث فقد نشأ المقال مرتبطا مع الصحافة ؛ واستمد منها حياته ووجوده ، وتلونت موضوعاته بحسب الاتجاهات التى كانت تسود الصحافة العربية .

يؤيد ذلك الدكتور / عز الدين إسماعيل فيقول :

" كلمة المقالة من حيث دلالتها الفنية تعد محدثة فـــى أدبنـــا العربى . والحق إن تـــاريخ المقالة عندنا يرتبط بتاريخ الصـــحافة ، وهو تاريخ يرجع بنـــا إلىَ الوزاء أكثر مـــن قرن ونصـــف قـــرن

بكثير . وبذلك يكون المقال قد دخل فـــى حياتنا الأدبية بعـــد أن أخذ فى الآداب الأوربية وضعه الحديث " [١] .

ونستطيع أن نخلص من اضطراب أقوال الدرسين واختلافهم إلى أن المقال يطلق فى عصرنا الحديث على الموضوع المكتـــوب بأسلوب أدبى ، ويوضح فكرة من الأفكار ، أو مسألة من المسائل ، يشرحها الكاتب ، ويشفعها بالأدلة والبـــراهين ، ويعرضـــها فـــى الصورة الملائمة التى تتفق ورأيه ومذهبه ، حتى إذا استوفت حقهـــا ختمها الكاتب بالخاتمة المناسبة .

والمقالة الأدبية منهـــا مـــا يخـــدم القضـــايا الفكريـــة ، والاتجاهات الأدبية ، وقضايا الأدب فى القديم وفى الجديد ، ومنهـــا ما يتخطى كل ذلك إلى تصوير أمور الحياة بحلوها ومرها ، وهـــذه هو الفارق بين المقالة والرسالة.

ويمكن أن يضاف إلـــى ذلك أن المقالة يخاطب بها الخاصـــة والعامة ، أما الرسالة فلا يخاطب بها إلا الخاصة [٢].وقـــد تطـــول الرسالة فتصل إلى عشرات الصفحات .

والمقالة وثيقة الصلة بالبحث ، وإن اختلفت عنه فى أوصافها واتجاهاتها ، ومـــا تتصف به من طول وقصر ، ومـــا تتناوله مـــن موضوعات .

---

(١) الأدب وفنونه د ن ٢٠٨ .

(٢) انظر : الأدب الحجازى الحديث بين التقليد والتجديد ، د/ إبراهيم الفوزان : ٢/ ٥٩٧، الطبعة الأولى ١٤٠١هـــ - ١٩٨١ م .

إن المقالة كالبحث ، تتناول كافة الموضوعات والأغـراض ، وتتعرض لمختلف المشاكل ، إنها تنحو منحى اجتماعيا ، فتهدف إلى تحرير الشعوب المغلوبة على أمرها ، وتدعو إلى عـلاج المفاسـد الاجتماعية ، والأمراض الخلقية ، كما تدعو إلى الأخذ بأسباب التقدم والرقى ، ورفض التواكل والكسل والتخلف .

وقد تتناول المقالة ميـدان السياسـة ، فتحـارب السياسـات الجائرة، وتقاوم الطغاة الظلمة من الحكام ، وفى المقابل تؤيد وتشـد على عضد الحكام الناجحين الصالحين .

وقد تتخذ المقالة جوانب الجمال فى كتاب مـن الكتـب ، أو أسلوب كاتب من الكتاب موضوعا لها ، فتعمل على إثارة الإعجاب، وبعث اللذة فى نفوس القراء والمستمعين ، وتنـبههم إلـى جوانـب الحسن والجمال فى الكتاب أو الكاتب .

والمقالة ليست حشدا لمعلومات مـن هنـا وهنـاك ، فهـى بوضعها الفنى الحديث تتميز بالقصر وبالخلو من القيود والزخـارف اللفظية ، كما تتميز بأن الصفة العامة اللازمة للأسلوب الذى صيغت به هو الوضوح والبساطة ، بحيث يقدم الموضوع إلى القراء بطريقة مشوقة ، وخاتمة المقال لا بد وأن تكون نتيجـة طبيعيـة للمقدمـة والعرض ، وأن تكون واضحة صريحة لم تأت بشىء لم يرد له ذكر فى المقال .

ومن أبرز كتاب المقالة الشيخ محمد عبده وعبد الله النـديم ، وعبد الرحمن الكواكبى ، وقاسم أمين ، وأحمـد حسـن الزيـات ،

وأديب إسحاق ، ومصطفى كامل ، والشيخ على يوسف ، وأمين الرافعى ، ومصطفى صادق الرافعى ، وأحمد أمين ، ونازك الملائكة ، وأمينة السعيد ، وسهير القلماوى .

وقد كتب هؤلاء المقالة فى ألوانها السياسية والاجتماعية والأدبية والدينية ، وهذا لا يمنع أن لونا معينا قد غلب على واحد منهم وبرز فيه دون غيره من أنواع المقالة ، كما غلب اللون السياسى على كل من : عبد الله النديم ، ومصطفى كامل ، وكما غلب اللون الاجتماعى على كل من الشيخ محمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبى ، وكما غلب اللون الأدبى على أديب إسحاق ، وكانت كتابة كل منهم ذات أثر رائع فى ميدانها .

وقد اهتمت الصحف والمجلات بنشر المقالات المختلفة (١) ، فاهتمت صحيفة " المؤيد " بنشر مقالات الشيخ على يوسف التى تدافع عن الدول الإسلامية وتهتم بقضاياها ، واهتمت جريدة " الجريدة " بمقالات لطفى السيد التى كانت تدعو إلى تحرير الشعوب من الاستبداد ، وكذلك كان حال " المقتطف " .وأخذت المقالة من ثم تنشط نشاطا ملحوظا فبرز فى المقالة السياسية كل من العقاد ، ومحمد حسين هيكل ، وأمين الرافعى ، وطه حسين ، وزكى مبارك، وعبد القادر حمزة ، وابراهيم عبد القادر المازنى .

---

(١) انظر الأدب العربى المعاصر فى مصر د . شوقى ضيف ص ٢٠٦ . دار المعارف بمصر الطبعة الخامسة ، والطبعة السادسة .

وأخذ هؤلاء يختلفون فى أفكارهم وفى قضاياهم واحتدم من ثم الصراع بينهم نتيجة لاختلاف مشربهم السياسى . ولم نلبث أن وجدنا كتبا للمقالات ، كان منها (مطالعات) للعقاد و (فيض الخاطر) لأحمد أمين و (حصاد الهشيم) للمازنى و(المختار) للبشرى ، ولا شك أن أسلوب هذه الكتب هو مثال للوضوح الناشىء عن الدقة فى اختيار الكلمات ، وسهولة التراكيب ، فبعد أن كان أسلوب المقالة مقيدا بالمحسنات البديعية المتكلفة انطلق من هذه المحسنات وتلك الزخارف ، وجنح إلى البساطة فى التعبير ، وعمق الفكرة ، ثم مال إلى التركيز والموضوعية .

وهكذا أخذت المقالة تجتذب معظم كتاب العصر ، وأخذت كذلك تتسع لكل الموضوعات التى تتصل بالطبائع الإنسانية ، واتسعت أكثر لتشمل القضايا الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والأدبية ، والدينية ، كما اتسعت لكل فروع العلم والمعرفة .

ولعله من المناسب هنا أن نقول إن نهضة المقالة فى بلاد الشام كانت أقوى من نهضتها فى سائر الدول العربية ؛ ولعل ذلك راجع إلى ما كان بين بلاد الشام والدول الغربية من اتصال قوى ومباشر .

الفصل الأول

فن المقالة بين القديم والحديث

سبق أن قلنا إن المقالة لها جذور قديمة العهد ، ترجع إلى ما أنشأه العرب من رسائل ، وخطب ، ومقالات ، وفصول ، فكل هذه كانت نواة فن المقالة .

فالمقالة إذن لها جذور ولدت فى ظلال الدولـة الإسـلامية . ومن الثابت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اهتم اهتماما بالغـا بالكتابة ، ونهج النهج نفسه الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم .

وعلى هذا فيمكن أن نقول إن فن المقالة مـر فـى تطـوره بمرحلتين مهمتين :

المرحلة الأولى : قديما :

حيث عرف القدماء المقالة ، لكنهـا عرفت باسـم (الرسالة) أو (الكتاب) مراعاة لطريق وصولها إلى الآخرين ؛ إذ هى مرسلة، أو نظرا لهيئتها إذ هى مكتوبة .

وكانت هذه الألوان الكتابية مقصورة على ضروريات الحياة، وما ذلك إلا لضيق القاعدة التى تتيسر لها الكتابة ، فما أن تـوفرت لها أسباب الانتشار ، وصارت قـولا معروضـا ومتاحـا للعامـة

والخاصة ــ وعلى وجه الخصوص بواسطة الصحافة ــ كان ولا بد أن يتغير اسمها لتتحول إلى (المقالة) .

ومن هذا اللون القديم : (رسالة التربيع والتدوير) للجاحظ ، تلك التى يعلن فيها سخريته من أحد معاصريه .

يقول فيها :

" كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ، ويدعى أنه مفرط الطول ، وكان مربعا ، وتحسبه لسعة جفرته ، واستفاضة خاصرته مربعا " .

فإذا ما وصلنا إلى العصر العباسي وجدنا مظاهر النمو والنضج قد بدت على هذا اللون الكتابى ؛ إذ اتسعت دائرة الرسائل ، وتنوعت ما بين : سياسية ، واجتماعية ، ودينية . يضاف إلى ذلك أنها تأثرت بطريقة (ابن العميد) و (القاضى الفاضل) ومن نهج نهجهما ، وتأثر بطريقتهما ، إذ التزموا السجع ، وأكثروا من المحسنات على حساب المعنى .

ومن كل ما تقدم يتبين لنا أن فن المقالة له جذوره العربية ، وهذه الجذور قديمة النشأة ، عرفها العرب مع بدء الدولة الإسلامية ، وأخذت تتطور شيئا فشيئا فى العصر الأموى ، حتى إذا ما جاء العصر العباسى وجدنا كتاب العربية يتقنون هذا اللون الكتابى ،

ويتطورون به ، وإن لم يصلوا به إلى شكل المقالة الفنية فى العصر الحديث [١] .

المرحلة الثانية : فى العصر الحديث :

فإذا ما وصلنا إلى العصر الحديث وجدنا فن المقالة يتطور تطورا ملحوظا ، ويزدهر ازدهارا يلمسه العامة والخاصة ، وكان من نتائج ذلك أن تعددت موضوعاته وفنونه ، وكثر كتابه كثرة ملحوظة .

لكن يلاحظ على المقالات التى انتشرت مع بداية هذا العصر ما يلى :

١ـــ أن لغتها التى كتبت بها كانت ضعيفة المستوى .

٢ـــ ضعف الفكرة المتناولة ، بل وتفاهتها أحيانا .

٣ـــ تطول المقالة طولا زائدا لا فائدة من ورائه .

٤ـــ سيطرة السجع المتكلف على حساب المعنى .

وبمرور الزمن توفر لهذا الفن من العوامل ما جعله يتطور تطورا سريعا ، ويتنوع بتنوع أحوال الحياة .

وعلى رأس هذه العوامل :

١ ـــ الاتصال بالأدب الغربى بعد قراءته وترجمته . والحق أنه كان لهذا الاتصال الأثر الكبير فى نهضة جميع الآداب والفنون ،

---

(١) انظر : فى الأدب العربى المعاصر ، د / إبراهيم عوضين : ١ / ص ٩٥ وما بعدها مطبعة السعادة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧٦ م .

واطلاع العرب على كل جديد مبتكر فى العلوم ، ووسائط الحياة الحديثة .

والذى ينبغى أن نذكره هنا أنه لم يكن لعالمنا العربى صلة بهذه العلوم الحديثة إلا بعد مجيء حملة نابليون بونابرت إلى مصر (١٢١٣ــ ١٢١٦ هــ) إذ المعروف أن حملة هذا الرجل قد مهدت بشكل أو بآخر لانتقال المعارف المستحدثة إلى العالم العربى (١) .

٢ ــ إرسال البعثات إلى أوربا ، فمن المبالغة أن نعد الحملة الفرنسية وحدها هى السبيل الوحيد الذى أطلع العرب على الجديد المبتكر فى العلوم ؛ ذلك لأن المدة الزمنية التى قضتها الحملة فى مصر لا تزيد على ثلاث سنوات، ثم إن الإصلاحات التى أحدثها الفرنسيون لم يكن هدفها الأول هو تنبيه الرأى العام ، وتحريك كوامنه نحو الرقى والتقدم (٢) .

ومن هنا يمكن أن نعد الإصلاح الشامل الذى قام به محمد على هو الخطوة الأولى فى سبيل تقدم المجتمع العربى ؛ فلقد عنى هذا الرجل بالبعثات العلمية ، وأنشأ المدارس ، وأرسل الدارسين إلى فرنسا ، وكان منهم من أسهم فى الدعوة إلى النهضة فيما بعد ، وطالب بإرساء الأسس السليمة لإحياء مجتمع جديد مستنير ، مثل :

---

(١) انظر : الجبرتى " تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار " : ٢ / ٢٣٣ .

(٢) انظر المصدر السابق .

رفاعة الطهطاوى ، وعلى مبارك ، وغيرهما من زعماء الإصلاح والدعوة إلى المدينة الحديثة .

٣ ــ انتشار المطابع ، وإحياء التراث ، بالعودة إلى عصور ازدهاره ، واتباع منهج أصحابه فى الكتابة ، والتمسك بلغتهم القوية، وأسلوبهم المرسل [1] .

وكان من آثار تأسيس المطابع أن ظهرت الصحف والمجلات اليومية والدورية منذ وقت مبكر ، فقد صدرت صحيفة (الوقائع المصرية) سنة ١٨٣٣ م ، و (الجريدة التجارية والزراعية) سنة ١٨٤٧ م .

والحقيقة أن صحيفة (الوقائع المصرية) لم تكن مجرد نشرة حكومية ، تطلع الناس على القوانين والأوامر التنظيمية التى تصدرها الدولة ، ولكنها كانت صحيفة إصلاح وتهذيب ، وتحضر وثقافة ، فقد عنيت منذ سنة ١٨٤١ م بالمقالات الأدبية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والعلمية ، والاقتصادية .

ويمكننا أن نقول إن المقالة ــ وعلى وجه الخصوص المقالة الأدبية ــ قد بلغت أوجها ، ووصلت إلى منزلة رفيعة من الإمتاع والجودة بفضل ما تيسر لكتابها من عودة إلى التراث ، والتثقف بثقافته ، والوعى بوظيفته ، ومدى ما له من تأثير فى القارئين .

---

(١) انظر : الأدب العربى المعاصر فى مصر ، د / شوقى ضيف ، ص ٣١ . دار المعارف بمصر .

٤ ــ ظهور الصحف المتنوعة . ذلك لأن الذى يتصل بموضوع المقالة ، وبالمؤثرات التى أثرت فى تنشيط الحركة الأدبية، وتطوير الأساليب الكتابية ، إنما هو قريب الصلة بنشأة الصحافة العربية ، وكثرة عدد الصحف والمجلات المنتشرة فى عالمنا العربى، فلقد تحولت جميعها إلى لسان حال يخاطب الشعب العربى بكل طبقاته ، وفى كل أمر من أمور حياته .

والذى ينبغى أن نذكره فى هذا الصدد هو أن حاكم مصر والسودان محمد على ، أراد أن يقف فى وجه التتريك ، فأمر بأن يكون التعليم باللغة العربية ، ثم أمر كذلك بإنشاء صحيفة لمصر تتحدث عن شئونها ، وتنقل أخبارها ، فكانت هذه الصحيفة هى صحيفة (الوقائع المصرية) [١] ، ومن ثم فهى البداية الحقيقية الأولى لمسيرة الصحافة فى المشرق العربى .

ويمكن اعتبار جريدة (الجوائب) تلك التى أسسها أحمد فارس الشدياق ــ أول جريدة عربية كبرى كان للمقالة فيها ــ على اختلاف مناحيها ــ حظ كبير ، وأصبحت هذه الجريدة تقرأ فى سائر أنحاء العالم [٢] .

ثم توالى صدور الصحف والمجلات فى بقية أقطار العالم العربى [٣]، والحق يقال إن بعضها استمر فى الصدور دون عقبات

---

(١) صدر العدد الأول منها فى ١٢ / ٦ / ١٢٢٤ هــ الموافق ٢٠ / ١١ / ١٨٢٨ م .
(٢) انظر : دائرة المعارف الإسلامية ، دار الشعب ، مصر ، مجلد ١١ ص ٢٤٦ .
(٣) انظر : الأدب العربى المعاصر فى مصر ، د / شوقى ضيف ، ص ٣٠ وما بعدها .

أو عشرات ، وأن بعضها الآخر قد اعترضته العقبات ، فتوقف بعد سنوات .

والحقيقة أن الشام قد سبق غيره من الأقطار العربية في إصدار الصحف ، لحرص الشاميين على التعليم من جهة ، وللأثر الذى تركته مدارس التبشير فى الشام من جهة أخرى ، وتبع ذلك إنشاء الصحف والمجلات ، فأقبل الكتاب على مزاولة الكتابة فيها ، فكانوا يحتذون فى فنونهم أساتذتهم الغربيين ، الذين بلغت المقالة فى أدبهم مبلغا جيدا ، ومن هنا كان بدء ازدهار المقالة فى الشام .

وقد انتقل الشاميون إلى مصر ، وحملوا معهم صحفهم التى أنشأوها ، وأنشأوا صحفا ومجلات أخرى ، وأخذوا ينشرون أدبهم ، فحذا المصريون حذوهم ، وبدأ يظهر فيهم كتاب متخصصون فى ميدان المقالة ، لم يلبثوا أن سيطروا على الميدان ، وظهر فيهم نوابغ كبار كانوا هم أساتذة فن المقالة فى العصر الحديث ، وعلى أيدى هؤلاء بلغت المقالة أعلى مرتبة لها وتربعت على أرفع العروش [١] .

٥ ــ التوسع فى التعليم ، وصيرورته غاية لنفسه ، ولم يعد يراد به الجيش ، وإنما أصبح يراد به الشعب[٢].

ومعنى هذا أن المواطن العربى قد انتقل فى حياته العقلية نقلة كبيرة ، وخطى خطوات واسعة نحو الامتزاج بالحضارة الأوربية ،

---

(١) انظر المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٤ .

وكان ذلك سببا فى أن يتهيأ للتأثر بـالآداب الغربيـة ، وأن ينتقـل بالترجمة نقلة دنت من الكمال بما أوتى من قدرة لغوية وأدبية .

وفى ظل هذه الحركة العلمية توافر عدد كبيـر مـن كتـاب المقالة البارزين ، الذين اتضحت شخصـياتهم الأدبيـة ، وبـرزت اتجاهاتهم الأدبية ، وكل هذا معناه تطور المقالة وازدهارها بشكل لم يسبق له نظير ولا مثيل في تاريخنا الحديث ، وأخذنا نقـيم لأنفسـنا نهضة أدبية حقيقية ، وكان عمادنا في ذلك الاتساع بالتعليم ، حتـى نادى بعض مفكرينا بأنه ضرورة ، وأن من الواجب أن يتمتع به كل مصرى ، كما يتمتع بالهواء والماء(١).

وهكذا صار (فن المقالة) من أكثر الفنون النثريـة ذيوعـا وانتشارا وتطورا فى العصر الحديث ، بل إننا ليمكننا القول إن أكثر الكتب انتشارا فى هذا العصر إنما هى الكتب الأدبية التى كانت فـى صورة مقالات متنوعة الأغراض والأهداف .

ونتيجة لما سبق بدأت النهضة تؤتى ثمارها ، وظهـر عـدد كبير من الأدباء والنقاد ، هاجموا الطريقة العثمانية فـى الكتابـة ، وأخذوا يعملون على تحرير كتاباتهم من قيود الصـنعة ، ومـنهم : لطفى السيد ، وطه حسين ، وعباس محمود العقاد ، وغيـرهم مـن الذين أسسوا ، وطوروا سمات المقالة الفنية حديثا .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٩ .

الفصل الثاني

المنابع الأساسية لفن المقالة

والحقيقة التى لا يمكن إغفالها أن المنابع الأساسية لفن المقالة فى الأدب العربى الحديث إنما هى الصحف والمجلات الدورية ، ذلك لأنها قامت بمهمة التعبير عن المجتمع ، وأبانت عن التيارات الأدبية المتدافعة فيه ، بل إن النهضة التى شهدها فن المقالة فى النصف الأول من القرن العشرين كان مردها إلى اهتمام الصحف والمجلات اليومية والدورية بها ، وتخصيصها أعمدة فى صفحاتها لها ، وقد اتخذ جميع الكتاب من هذه الصحف والمجلات وسيلة لنشر إنتاجهم الأدبى ، وآرائهم الجديدة فى الأدب والفن .

لقد استطاعت هذه الصحف وتلك المجلات أن تكون مدرسة تثقيفية ، ومعرضا للفنون الأدبية ، وللدراسات النقدية ، ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن الأدب الحديث بصفة عامة ، وفن المقالة بصفة خاصة ، قد نشأ وترعرع فى أحضان الصحافة [١] .

ومع أهمية الدور الذى تلعبه الصحافة فى الدراسات الأدبية ، والفنية ، والاجتماعية ، فإنا نجد أن الصحافة كانت من العوامل الرئيسة فى نشأة فن المقالة ، وفى تطور هذا الفن ونموه وانتشاره ،

---

(١) انظر : الأدب العربى المعاصر فى مصر ، د / شوقى ضيف . ص ٣٦ وما بعدها .

فهى التى هيأت ، وساعدت على انتشار هذا الفن الحديث فى وقتنا الحاضر ، لا فى الآداب العربية فحسب ، بل وفى الآداب العالمية جميعها ، وإن أردت الصواب فقل إنه ليس هناك لون من ألوان الإنتاج الأدبى يدين فى رواجه وانتشاره للصحافة مثل فن المقالة ، فالصحف هى التى تقبل على المقالة ، وتتهافت على نشرها ، والمقالة هى الفن الوحيد من بين فنون الأدب الذى يتفاعل مع الصحافة .

فعن طريق الصحافة وحدها انتشرت المقالات الإصلاحية التى كان يكتبها الكتاب الاجتماعيون من مقالات اجتماعية ، ينقدون فيها بعض الأحوال التى كانت فى المجتمع ، ويقارنون بين التقاليد الموروثة (تقاليد مجتمعنا الإسلامى) وتقاليد المجتمع الغربى ، التى كان يحاول البعض ممن يتصلون بأوربا من قريب أو من بعيد محاكاتها وتمثلها .

وعلى هذا النحو جاءت مقالات معظم الكتاب متحدة فى الغرض منها ، وخرجت تستهدف أولا وقبل كل شىء الإصلاح الاجتماعى ، ومعالجة الأمراض الاجتماعية التى استوطن بعض منها فى البيئة العربية ، ومع هذا فنحن نرى تلك المقالات — مع اتحادها فى الغرض — تختلف بعض الشىء فى طريقة المعالجة ، وفى عرض تلك الأدواء والأمراض والعيوب الاجتماعية .

وثمة حقيقة مهمة وخطيرة ، وهى أن الهدف الإصلاحى الاجتماعى قد استمر فى محاولات الكتاب ، وهذه خطوة على

طريق جعلت الكتاب يدفعون دفعا إلى تحقيق شيء من الأصالة في ميدان فن المقالة ، وينشدون تطورها ، من خلال الاهتمام بالنواحي الدينية والاجتماعية والأدبية ، ومن رواد هذه المرحلة: (الشيخ محمد عبده) ، و (عبد الله النديم) ، و (الشيخ علي يوسف) ، و (مصطفى كامل) .. وغيرهم [1] .

وإذا كان هناك من النقاد العرب من يرى أن فن المقالة لم يرتبط في ظهوره بالصحف والمجلات [2] ، فهي — أي المقالة — معروفة قبل أن تعرف الصحف ، وقبل أن يخترع فن الطباعة الآلية بقرون طويلة ، ذلك لأن عددا من الأدباء قد اختاره قالبا فنيا منذ عصر اليونان القدماء .

إذا كان كذلك فإن هناك عددا كبيرا من الأدباء والنقاد يرون أن فن المقالة إنما ارتبط في نشأته بالصحافة ، وأنه رافقها على طريق التطور والازدهار ، متأثرا بالمقال الغربي ، وأنه بدخول الصحافة ديار العرب أخذت تؤثر في تطور المقال ، وتنقل الأسلوب الكتابي من الترصيع والتزيين والركاكة ، إلى البحث عن الكلمة الخفيفة البعيدة عن الإغراب ، والمناسبة للمعنى ، للتخلص من قيود السجع ، ومحاكاة أساليب النثر في العصور الأولى .

---

(١) انظر : النديم الأديب ، د / محمد السعدي فرهود ، ص ٨٣ . المكتبة السعدية ، القاهرة ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م .

(٢) على رأس هؤلاء الدكتور / محمد مندور .

أما أثر الصحافة البالغ فى الأسلوب الكتابى ، فهذا أمــر لــم يتبلور إلا فى كتابات أدباء أوائل القرن العشرين الميلادى ، وإن كان حظ كل منهم يختلف باختلاف موهبته وتثقفه ، وحرصه على أدواته الكتابية .

وفى رأيى أنه على رأس هؤلاء الكتاب المجددين الذين دخلوا بالنثر إلى ميادين واسعة من التطوير والتجديد ، أمثال : الــدكتور / طه حسين ، والدكتور / محمد حسين هيكل ، والأستاذ / أحمد حسن الزيات ، والأستاذ / عباس محمود العقاد ، والأديب / جبران خليــل جبران ، والأديب / إبراهيم عبد القادر المازنى ، والأســتاذ / ســيد قطب ، والأستاذ / أحمد أمــين ، والشــاعر / ميخائيــل نعيمــة ، والأديبة/ مى زيادة ، وغيرهم .

فقد أفادوا جميعا من عودتهم إلى التراث العربــى ، فــأحيوا جيده ، وحاكوا النماذج الممتازة منه ، وأضافوا إلى ذلك ما اســتجد من الجديد ، ومن ابتكار تمنحه الموهبة الصادقة ، فاجتمع لأكثــرهم الطبع الصادق المتدفق ، والإلمام بالقيم الفنية للنص العربى القديم ، والثقافة الحديثة الشاملة ، وكل ذلك لابد أن يدفع إلى إبداع جديــد ، يحمل سمة صاحبه ، ويكون بمعزل عن التقليد والتأسى العقيم[1] .

---

(١) المقالة فى الأدب السعودى الحديث ، د / محمد العوين : ١ / ٥٠ ، ٥١ . الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م .

لقد بلغت المقالة أوجها ، ووصلت إلى ما وصلت إليه من ذيوع بفضل الصحافة ، ذلك لأن ما كان يكتب فى الصحافة فى الوطن العربى لم يخل من تأثير قريب أو بعيد فى تكوين إنسان القرن العشرين .

ولقد تمثل أثر الصحافة فى تطور المقالة فيما يلى :

١- اتسعت موضوعات المقالة ، فأخذت تتناول الموضوعات الدينية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والسياسية ، والاقتصادية .

٢- ظهر فى المقالة ميل كبير إلى فهم ما تضطرب به حياة الكتاب من أحداث ومؤثرات ، وما يسعون إليه من تغيير ، ثم الوقوف عند حقيقة الدعوات الفكرية والاجتماعية التى يعلنها المصلحون منهم .

٣- وصلت المقالة إلى درجة عالية من الدقة ، والتركيز ، وبراعة العرض ، حتى لكأننا أمام فن أدبى جديد غير معهود من قبل .

٤- طوعت الصحافة لغة المقالة ، فأصبحت سهلة سليمة الصياغة ، فقام كتابها من ثم بواجبهم فى الإبانة عن وظيفة الأدب ، وتوضيح مكانة الأدباء فى المجتمع ، ودورهم فى الرقى به إلى ما يحملونه من قيم ، وما يحلمون به من مثاليات .

٥- اكتملت أنواع المقالة ، وأصبحت تتميز بميزات خاصة، جعلت كتابنا يصولون ويجولون فيها ، ويرتقون بها وبغيرها إلى مراتب عليا فى استشعار وظيفة الكاتب ، وأداء ما عليه من حق

تـــجاه مجتمعه وأمته ، فـــكان لهم إســـهام طيـــب فـــــى المقالـــة السياسية، والأدبية ، والدينية ، والعلمية ، والفلسفية ، والخـــاطرة ، والرسائل ، وعرض الكتب ، وغيرها .

٦- تعددت وسائل نشره بين صــحيفة ومجلـــة ، فالمنـــابع الأساسية للمقالة ــ كما سبق أن قلنا ــ هى الصحف والمجلات ، بل إن النهضة التى شهدتها المقالة فى القرن العشرين ــ وعلـــى وجـــه الخصوص فى النصف الأول منه ــ كان مردها إلى اهتمام الصحف والمجلات بها ، وقد اتخذ الكتاب من هذه الصحف وتلك المجــلات وسيلة لنشر إنتاجهم الأدبى وآرائهم الجديدة التى نطقت بها مقالاتهم.

ثم إن الصحافة هى التى هيأت وساعدت على انتشـــار فـــن المقالة ، بل وعملت على تطوره ونموه .

٧- تنوع أسلوب المقالة بين العلمي والأدبى ، والعلمى المتـــأدب ، حتى ظهرت المقالة العلمية الموضوعية ، التى تلتزم بالتقسيم المتبع فى الكتابة المقالية عن أى موضوع علمى ، لتكون قضاياه متواصلة، بحيث تكون كل قضية نتيجة لما قبلها ، مقدمة لما بعـــدها ، حتـــى تنتهى جميعا إلى الغاية المقصودة .

٨- اتسمت المقالة بالمرونة والاســـتجابة للتيـــارات الســـائدة فـــى المجتمع، وقد تمثل هذا فى فترتين بارزتين :

(أ) الفترة الأولى : فترة الصراع السياسى ، وفيها كثرت المقالات السياسية التى تواكب الحياة ، وما يصـــطرع فيهـــا مـــن تيـــارات مضطربة ، يعمد الكاتب فيها إلى إبراز وجهة نظره إزاء الأحداث ،

والذب عن معتقده السياسى ،أو الدفاع عن حزب أو تيار ، أو نحـــو ذلك .

(ب) الفترة الثانية : فترة انتشار تيارات الإصـــلاح الاجتمـــاعى ، وفى هذه الفترة كثرت المقالات الاجتماعية التى تعالج أدواء المجتمع وأمراضه ، مثل الجهل ، والفقر ، والمرض ، والعـــادات والتقاليـــد البالية .

٩- ازدهرت المقالة ، واتسعت قاعدتها الجماهيرية ، بحيث لا ترى صحيفة تخلو من مقالات متعددة تعالج مشكلات المجتمـــع ، وتعبـــر عن آماله ، وتصل إلى النتائج التى تدفع الحياة إلى التطور والرقى .

١٠- وإذا كنا نعرف أن كتاب المقالة كانوا صفوة من رجال الأدب والفكر ، الذين جمعوا بين الثقافتين : العربية الأصـــيلة ، والغربيـــة الوافدة ، فإننا يمكن أن نقول إن الصحافة - بما كانت تنشره لهؤلاء - قد أثرت فى لغة المقالـــة ، فاتجهـــت للترســـل ، والوضـــوح ، والتركيز ، وابتعدت عن أسلوب المقامات ، لأن كاتبا هذا شأنه ليس لديه من الوقت ما يمكنه من التفنن فى الترصيع ، كما أن القـــارىء ليس لديه صبر على قراءة مثل هذه الألوان الكتابية .

لقد ارتقى هؤلاء بأسلوب المقالة ، واتجهوا فيها إلى التحليـــل والتعليل ، ووضوح الفكرة ، ودقة التعبير عنها ، وسلامة العبـــارة ، وأكبر دليل على ذلك هو ما كتبه كل من : الأستاذ / لطفى الســـيد ، والدكتور / طه حسين ، والأستاذ / محمد حسين هيكل ، والأســـتاذ / عباس محمود العقاد ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وغيرهم .

١١- جذبت الصحافة الأدباء بشكل أو بآخر ، وأتاحت لهم الفرصة فى نشر ما يكتبون ، حتى أصبحت الصحف مجالا لكتابة المقالات : الأدبية ، والاجتماعية ، والفلسفية ، والدينية ، الأمر الذى ترتب عليه رواج ونشاط فن المقالة ، حتى ظهرت الصحف المتخصصة ، مثل الصحف السياسية التي ظهرت بعد انتشار الوعي القومي ، وأخذت تهتم بالمقالات التى تثير الجماهير مثل مقالات : الشيخ محمد عبده ، وعبد الله النديم ، والشيخ على يوسف ، وغيرهم .

وقد حرص بعض الأدباء على جمع مقالاتهم فى كتب صار لها دور بارز فى النهضة الأدبية والاجتماعية ، ومن هذه الكتب (الفصول) للعقاد ، و (حديث الأربعاء) لطه حسين ، و (وحى القلم) للرافعى ، و (نماذج بشرية) للدكتور محمد مندور .. وغيرها .

هذا هو دور الصحافة فى تطور ورقى فن المقالة . ونحن لو التمسنا الطريق إلى واحد من الأدباء الذين عاصروا تطور فن المقالة لنسأله عن ذلك لأجابنا بأن الصحافة قد أسهمت إسهاما فعالا فى نهضة المقالة وازدهارها .

مدارس المقالة فى الأدب الحديث

سبق أن أشـــرنا أن الصحافة كان لهـــا ــ مـــع بقية عوامل النهضة – إســـهام كبير فـــى اكتشاف نموذج المقالة ، بـــل وفـــى صنعها ، لدرجة أننا لم نصل إلـــى فاتحة هـــذا القرن حتـــى كـــان لنـــا مدارس صحفية متميـــزة ، حمـــل كتابهـــا عـــبء النهـــوض بالمـــقالات السياسية وغير السياسية ، بل لقد دفعوها أشواطا حتـــى صارت فنا له أصول وقواعد ، ونظم وتقاليد [١] .

فالصحافة إذن هـــى الباعث الأقـــوى الذى دعم البناء الأدبى للمقال ، وأعانت على الابتكار فـــى فنونـــه وألوانـــه ، وفتحـــت صفحاتها لكل نابه فيـــه ، وأصبح الجميع يطالعون المقالات الطويلة والقصيرة فـــى مختلف شئون الحياة ، علـــى صـــفحات الصـــحف مـــع اختلافها مـــن يومية ، وأســـبوعية ، وشهرية ، وفصليـــة ، حتـــى صار للمقالة فـــى العصر الحديث مدارس متنوعـــة فـــى اتجاهاتها ، وســـماتها ، وخصائصها .

ونحن نريـــد فـــى هـــذه الصفحات أن نجمع شتات مـــدارس المقـــالة ــ وإن تداخلت فى الفترات التى عاشتها ، ومعاصرة بعض رجالها لبعض ــ وأن نوضح ما أمكن السمات الغالبة على أصحاب

---

(١) انظر المقال وتطوره فى الأدب المعاصر ، د / السيد مرسى أبو ذكرى ص ٦١ وما بعدها . دار المعارف بمصر ١٩٨١ ــ ١٩٨٢ م .

كل مدرسة ، ومدى ما حققوه فـــى دفع الفن المقالى إلـــى الأمـــام فكرة ومضمونا ، أو موضوعا ، أو لغة وأسلوبا ، وما إلى ذلك .

(أ) المدرسة الأولى :

ويمكن أن نسمى مرحلة هذه المدرسة بمرحلة النشأة ، وهـــى تلك المرحلة التى نشأت فيها الصحافة ، وتبدأ هـــذه المرحلة تقريبـــا مـــن صدور صحيفة (الوقائع المصرية) عام ١٨٢٨ م ، وتنتهـــى بقيام الثورة العرابية .

وزعيم هذه المدرسة غير مدافع هو " رفاعة الطهطـــاوى " ، فقد حمل هذا الرجل على عاتقه مهمة ظهور المقالـــة [١] والكشـــف عنها ، وهذا في الحقيقة شيء ما كانت لتألفه الصحافة المصرية من قبل ، وتبعه فى هذا عبد الله أبو السعود [٢] ، وغيره .

بيد أن ما يمكن ملاحظته علـــى محـــاولات الطهطـــاوى أن المقالة التي ظهرت على يديه كانت بدائية فجة ، وكان أسلوبها أقرب إلى عصر الانحطاط ، فهو يزهو بالســـجع الغـــث ، والمحســـنات البديعية ، والزخارف المتكلفة الممجوجة [٣] .

---

(١) انظر : أدب المقالة الصحفية فى مصر ، د / عبد اللطيف حمزة : ١ / ١١١ . عالم الفكر ١٩٦٤ م .

(٢) انظر : المقال وتطوره فى الأدب المعاصر ، د / السيد مرسى أبو ذكرى ص ٤٨ . دار المعارف ١٩٨١ ـــ ١٩٨٢ م . دار نشر الثقافة بالإسكندرية .

(٣) انظر نماذج لذلك فى : الوقائع ، عدد ٦٠٣ . الخميس غرة ربيع الثانى ١٣٥٨ هـــ .

وكانت الشئون السياسية هي الموضوع الأول لمقالات هذه ...رسة ، وإن وجد من الكتاب من تناول بعض الشئون الاجتماعية والتعليمية [١] ، فلقد حملت المقالات لواء الثورة على الفساد ، كما حملت مهمة الدعوة إلى ثورة فكرية [٢] .

وفيما يلي جزء من مقالة بعنوان (الوطني المزيف) [٣] لأحمد فارس الشدياق ، يقول فيه :

" من الناس من يبالغ في مدح وطنه ، ويحن إليه حنينه ، فيصف مروجه ورياضه ، وحروجه وحياضه ، ووهاده وجباله ، وتلاعه وتلاله ، وربوعه ودياره ، ونباته وأشجاره ، وبقوله وثماره، ودوحه وأطياره ، وطيب هوائه ، ولذة مائه ... " .

ولا يمكن أن نغفل في هذه الفترة عوامل النهضة الأخرى ، مثل : إحياء تراثنا القديم ، والاتصال بالحضارة الغربية ، فكل هذه العوامل مجتمعة دفعت فن المقالة دفعات إلى الأمام ، ثم أخذ الوليد ينمو ويتطور ، وتتنوع اتجاهاته ، وأشكاله ، وخصائصه الأخرى .

---

(١) فن المقالة ، محمد يوسف نجم ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) راجع : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، أحمد أمين ص ٥٧ ــ ١٢١ . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٧ هـ ــ ١٩٤٨ م .

(٣) انظرها في كتاب : نشأة النثر الحديث وتطوره ؛ عمر الدسوقي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٧٦ م ص ٥٧ .

(ب) المدرسة الثانية :

وتمتد هذه المدرسة حتى الاحتلال الأجنبي لمصر عقب الثورة العرابية ، ومن أشهر أعلام هذه المدرسة : أديب إسحاق ، ومحمد عبده ، ومحمد رشيد رضا ، وعبد الله النديم ، وكلهم ممن ارتبط بالصحافة ، وارتبط كذلك بالكفاح الوطنى المصرى .

ويطلق الأستاذ عمر الدسوقى على هذه المدرسة اسم مدرسة (جمال الدين الأفغانى) [(١)] ، لأن أعلام هذه المدرسة قد تتلمذوا على يديه ، وتأثروا بدعواته الإصلاحية والفكرية .

وأصبحوا دعاة لها ، وليست من شك فى أن الأفغانى كان له دور كبير فى قيام ثورة فكرية فى مصر ، والدور نفسه قام به كل من : عبد الله النديم ، ومحمد عبده ، فلقد شاركوا جميعا فى إشعال الروح الوطنية ، والدينية ، والأدبية فى مصر ، ودعوا إلى الاقتباس من الغرب ، وقد كان لروادهم الذين تأثروا بهم دور كبير الشأن فى الدعوة إلى التجديد فى مصر .

وهناك بون واسع بين مقالات هذه المدرسة والمدرسة التى تسبقها، فلقد بث أبناء هذه المدرسة فى المقالة والسياسية الحياة والقوة ، فكانت مقالاتهم السياسية على سبيل المثال هى أقوى شىء هوجم به الاحتلال الأجنبى فى مصر .

---

(١) المصدر السابق : ١ / ٦٠ .

وعموما فإن هذه المدرسة قد خطت بهذه المقالـــة خطــوات ...ية من حيث : الموضوع ، والفكرة ، والأسلوب ، والأداء الفنى ، نعم إنها لم تبلغ بالمقالة حد الكمال ، لكنها ارتقت بها عن ســـابقتها ، وخطت بها خطوات واسعة .

(ج) المدرسة الثالثة :

وأبناء هذه المدرسة عاشوا فترة من حياتهم فى ظل الاحتلال، ورأوا ما رأوا من سياساته الاستعمارية ، من تعطيـــل للصـــحف ، وإذلال الشعب وامتهانه ، ونفى زعمائـــه أمثـــال : محمـــد عبـــده ، وغيره، فكان ولا بد أن يتأثروا برصيد الكفاح الوطنى الذى سبقهم ، وبالدعوات التحررية والإصلاحية التى نادى بها الأفغانى وغيره من المصلحين الذين كانوا شعلة وطنية متقدة ، وكانوا خطباء مفوهين ، وكتابا سياسيين لا يشق لهم غبار [1] .

ومن أعلام هذه المدرسة : مصطفى كامل ، والشـــيخ علـــى يوسف ، وجورجى زيدان ، ولطفـــى الســـيد ، ومصـــطفى لطفـــى المنفلوطى ، وعبد العزيز جاويش ، ومحمد رشيد رضا ، وغيرهم .

والحق يقال إن أبناء هذه المدرسة قد أوقفوا معظم كتابـــاتهم على الاتجاه السياسى ، وانبرى كثير منهم للحديث عن يقظة الوعى القومى من جهة ، والحرية ، والاستقلال ، والحياة الكريمة من جهة أخرى .

---

(١) انظر : المقال وتطوره فى الأدب المعاصر ، د/ السيد مرسى أبو زكى ، ص ٥٠ .

يقول الدكتور عبد القادر رزق الطويل عن هذه المدرسة [١] :

" وبالرغم من طغيان الاتجاه السياسى فى المقالة عند أعلام هذه المدرسة – للظروف التى عاشوا فيها – وأنها كانت أقرب إلى الخطبة الحماسية منها إلى المقالة الهادئة المتزنة ، فإننا نلحظ تنوعا فى الموضوعات ، ناتجا عن اختلاف اتجاهات الأعلام فى ميادين الإصلاح ، واتجاه كل منهم إلى القيادة فيه ، فهذا (السيد على يوسف) يدافع عن الحكم المصرى ، والدين الإسلامى ، والكفاءة المصرية ، بينما (لطفى السيد) يقوم على حراسة (أخلاق الأمة)، و (مصطفى كامل) يلهب الضمائر حماسة بمقالاته الملتهبة ، ليهزها بقوة لتنهض مطالبة بحقوقها ".

وعموما فإن هذه المدرسة قد خطت خطوات جريئة بفن المقالة ، فى الموضوعات وفى البناء الفنى ، وقد وجهت الأنظار إلى اليقظة العامة ، والثقافة بمفهومها الواسع ، وذلك لتربية أذواق الناس وعقولهم ، ويكفيها شرفا وفضلا أنها مهدت الطريق لظهور طبقة مستنيرة وجيل جديد فى المقالة تقاسم أبناؤه شئون الكتابة المختلفة ، من أمثال : عبد الرحمن شكرى ، والعقاد ، والمازنى ، وطه حسين، وهيكل [٢] .

---

(١) المقالة فى أدب العقاد : ص ٥١ .

(٢) انظر فن المقالة ، د/ محمد يوسف نجم ص ٦٧ .

(د) المدرسة الرابعة :

وأبناء هذه المدرسة هم الجيل الذى نشأ عقب جيل المدرسة الثالثة ، أى بعد الحرب العالمية الأولى ، ومعنى هذا أن هذا الجيل قد عاصر أحداثا عظيمة فى التاريخ العربى الحديث والمعاصر [1] .

ومن أشهر أعلام هذه المدرسة : أحمد حسن الزيات ، وأحمد أمين، وأمين الرافعى ، وزكى مبارك ، ومحمود تيمور ، والعقاد ، وشكرى ، والمازنى ، وطه حسين ، والرافعى ، وهيكل ، وعبد القادر حمزة والزيات ، ومحمود محمد شاكر ، وغيرهم .

وامتاز كتاب هذه المدرسة بأنهم كانوا يلهبون بمقالاتهم الإحساس الوطنى ، ويخبلون العقول والقلوب بمقالاتهم السياسية ، وامتازت مقالاتهم بالأسلوب الأدبى الحديث المتسم بالتركيز ، والدقة العلمية ، والميل إلى بث الثقافة العامة التى تربى أذواق الناس وعقولهم .

فى هذه الآونة لم تلبث المقالة – وعلى وجه الخصوص المقالة الأدبية – أن أفردت لها مجلات خاصة ، بل وكتب خاصة ، تعنى بالحركة الثقافية والأدبية .

يقول الدكتور / شوقى ضيف [2] :

---

(١) انظر : المقال وتطوره فى الأدب المعاصر ، د/ السيد مرسى أبو ذكرى ، ص ٥٣ وما بعدها.

(٢) الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ٢٠٧ .

" ولا نتقدم إلى الجيل الثالث جيل هيكل والعقاد وطه حسين والمازنى ، حتى تصبح المقالة الأدبية أثرا فنيا قيما حقا ، فهى تمس القلوب ، وتثير العواطف ، وقد اتسعوا بها إلى مباحث عميقة فى الأدب والنقد ، والفنون الجميلة ، والنظريات الفلسفية والاجتماعية ، مستهدين فى ذلك بالمثل الإنسانية العليا مثل الخير والحق والجمال .

وسار فى هذا الطريق غير كاتب مثل توفيق الحكيم وغيره ، ممن نقلوا إلينا فى مقالاتهم روح الفكر الغربى ومذاهبه الاجتماعية والأدبية ، ولم يدعوا مقالاتهم تفنى مع الصحف ، بل جمعوها وطبعوها فى كتب مختلفة حتى يتيحوا لها شيئا من البقاء .

ولا بد أن نشير هنا إلى مقالات مصطفى صادق الرافعى ، وأحمد أمين الاجتماعية ، وهى تمتاز عند أولهما باستبطان عقلى واسع ساعد عليه صممه المبكر ، بينما تمتاز عند الثانى بمحصول فكرى وافر ساعدت عليه ثقافته الواسعة ، وهو فيها ينقد أحيانا بعض جوانب المجتمع ، ولكنه لا ينقدها فى سخط عنيف ، شأن الخطيب أو الواعظ ، وإنما ينقدها فى حديث هادئ " .

تلك هى مدارس المقالة فى أدبنا الحديث ، والتى أخذت الصحافة منطلقا لها ، وقبل أن ننهى الكلام لا بد وأن نعترف أن هذه المدارس كانت منبرا أمينا للدفاع عن هوية الأمة ، هذا فضلا عن تتبعها لما قاله أبناء الغرب عن الإسلام ، ووقوفها فى وجه الحملات الموجهة ضد أبناء الأمة .

ومن ثم بلغ المقال بهذه الرحلة قمته ، وأصبح فنـا مسـتقلا يزو الحياة والمجتمع ، وصار يدرس فى المدارس والجامعات وفق قواعد وأصول ، لها نظمها وتقاليدها .

وعلى الجملة فقد دعمت الصحافة المقالة ، وأعانـت علـى الابتكار فى فنونه وألوانه ، حتى صار معرضا لكثير من ضـروب المعرفة ، وألوان الثقافة ، وبذلك أوجد وعيا علميا وأدبيا وفنيا [1] .

(١) انظر المقال وتطوره فى الأدب المعاصر ، د/ السيد مرسى أبو ذكرى ، ص ٤٧ وما بعدها .

الفصل الثالث

آفاق المقالة واتجاهاتها

مما سبق من كلامنا عن المقالة يتبين لنا أنها قطعة نثرية محدودة الطول ، تكتب بطريقة عفوية ، وتكون ممثلة لفكر كاتبها ، كما تكون لغتها سهلة ، وأسلوبها ميسرا ، ويعالج بها شأن من شئون المجتمع والحياة.

كما تبين لنا أنه قبل بداية العصر الحديث لم يكن لفن المقالة وجود بالمعنى الفنى الكامل الذى نقصده من كلمة : (مقالة فنية) ، إذ أصيب هذا الفن بما أصيب به الفكر العربى بعامة والأدب بخاصة، فلقد طغت على السطح أحداث واتجاهات صرفت الاهتمام عن اللغة العربية لفظا وأسلوبا إلى الأفكار التى تخدم الاتجاهات الحديثة الوافدة على حياة أمتنا العربية والإسلامية ، فبدأ اللحن يجد طريقه إلى لفظ المقالة ، وتسرب الخلل إلى أسلوبها ، وكان ذلك نتيجة سيطرة ضعاف الثقافة على صفحات الصحف والمجلات (١).

وحين ظهرت الصحف ، وأنشئت صحيفة (الوقائع المصرية) ، وارتاد النابهون صفحاتها بأقلامهم لم يكن فى متناولهم

---

(١) انظر : المقالة فى أدب العقاد ، د/ عبد القادر رزق الطويل ، ص ٥٣ وما بعدها ، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م .

بدايات يسيرة حاكوا فيها ما وقعت عليـــه أعيـــنهم فـــى الآداب
ا غربية ، يضاف إلى ذلك ما قبسوه من التراث الأدبى ، ومن هنـــا
بـ بدئ ازدهار فن المقالة .

وتبين لنا كذلك أن مقالة الصحيفة تختلف عن مقالة المجلة فى أمور[١] ، لعل أهمها :

١- اليسر والسهولة فى لفظ المقالة الصحفية وأسلوبها ، لدرجـــة أن هذه المقالة قد تنزل لكى تكون قريبة من العامة ، ملائمة لجمهور القراء . بينما العمق والقوة هما سمة مقالة المجلة ، يستوى فى ذلك اللفظ والأسلوب .

٢- والمقالة الصحفية زاد يومى ، ومقال تصويرى يصدر فيـــه الكاتب عن شعوره إزاء صورة من صور الحياة ، أو وضع من أوضاع المجتمع ، وعلى هذا فهو ينتهى بانتهاء الحالة ، أو اليوم . أما مقالة المجلة فإنها تتسم بقابلية البقاء ، فهى إلى البحث أقرب ، بل قد تكون بحثا .

٣- ومقالة الصحيفة من طابعها أن تكون قصيرة ، ولا يصـــار فيها إلى الإطالة إلا نادرا ، أما مقالة المجلة فقـــد تطـــول ، وذلك لأنها تمثل بحثا بكل ما للبحث من خصائص وسمات .

---

(١) انظر : المقال وتطوره فى الأدب المعاصر ، د/ السيد مرسى أبو ذكرى ، ص ٦١ وما بعدها.

.... ومن كل ما تقدم يتضح لنا أن المقالة لم يكن لها ميدان محدد ، فقد تتنوع موضوعاتها بحسب الاتجاهات التى سادت الصحافة العربية ، واتسعت آفاقها لتشمل القضايا السياسية ، والدينية، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والإنسانية ، وغير ذلك .

وتتعدد أنواع المقالة من حيث المضمون ، والشكل (الحجم)، والأسلوب ، ويظهر ذلك فيما يلى :

أولا : من حيث المضمون :

إذا نظرنا إلى المقالة من حيث المضمون فإننا نراها تتفاوت وتختلف حسب ما يأتى :

١- شخصية الكاتب .

٢- وثقافته وفكره .

٣- ونوع أسلوبه .

٤- وطبيعة الموضوع المتناول .

٥- ووسيلة النشر .

فكما سبق القول لكل كاتب شخصيته ، ولكل كاتب ثقافته وفكره ، والكتاب يتفاوتون فى ذلك كله من ناحية العمق والسطحية ، وخصوبة الفكر أو ضيقه ، وما إلى ذلك ، واتساع الأفق أو ضيقه ، والميل إلى الإيجاز أو الإطناب ، والتمكن من اللغة أو الضعف فيها، وفروق الثقافة والبيئة ، واختلاف النظرة للموضوع .

ومن حيث الأسلوب : إذا كان الأسلوب أدبيا مال إلى التفنن ، التأنق في الألفاظ ، وهندسة العبارة ، وحيوية التصوير ، والإيقاع الموسيقي ، بينما إذا كان علميا متأدبا مال إلى الدقة في تحديد الألفاظ ، والمصطلحات ، مع الصور التوضيحية التي تخفف إلى حد ما من جفاف المادة العلمية .

ومن حيث طبيعة الموضوع قد يتغلب الجانب الفكري إن كان الموضوع المتناول فكرة أو رأيا ، كما قد يتغلب التأثير العاطفي إن كان الموضوع يدور حول مشهد ، أو ناحية نفسية ، أو إنسانية .

كذلك ينبغي أن يوضع في الاعتبار (وسيلة النشر) فما ينشر للخاصة في مجلة متخصصة غير ما ينشر في صحيفة يومية أو أسبوعية سيارة ، تخاطب القاعدة العريضة من الجماهير ، فمثل هذه الأخيرة ينبغي أن تكتب بلغة مبسطة ، وعبارة ميسورة ، وتراكيب سهلة ، وتذكر بين طياتها الأدلة المشوقة التي تجذب الجمهور ، وتشده ، أما مقالة المجلة فيرتفع أسلوبها ، وتتعمق أفكارها ، وتجافي السهولة والتبسيط والجاذبية .

ثانيا : من حيث الشكل (الحجم) :

وإذا نظرنا إلى المقالة من حيث الحجم وجدنا الصنفين التاليين:

١- المقالة القصيرة (مقالة الخاطرة) :

وهى المقالة التى تتناول فكرة واحدة محـــدودة ، أو ناحيـــة واحدة من نواحى المجتمع ، ويأخذ الكاتب يعرضها بطريقة شـــائقة وغاية فى التركيز، وهو يستعين فى بنائهـــا بالأســـلوب الواضـــح ، والعبارات السهلة المفهومة .

ومثل هذه المقالات أو الخواطر قد يألف الكاتب اختيار عنوان ثابت لهما ، مثال ذلك : (نحو النور) لمحمد زكى عبد القـــادر ، و (فكرة) لمصطفى أمين ، و(ماقل ودل) لأحمد الصاوى محمد ، و (صندوق الدنيا) لأحمد بهجت ، و (من قريب) لســـلامة أحمـــد سلامة، و (مواقف) لأنيس منصور ، و (مجـــرد رأى) لصـــلاح منتصر .. وغيرهم .

٢- المقالة الطويلة :

وهى المقالة التى قد تصل إلى عشـــر صـــفحات ، ويتنـــاول الكاتب فيها جانبا محددا بعد التمهيد له إذا رأى ذلك ، ثم يأخذ فـــى عرض الأفكار الأساسية ، ويحللها إلى أفكار جزئية مترابطة ، كـــل ذلك بطريقة جذابة ، ولغة سهلة ، تحقق الإقناع والتأثير . ومن كتاب هذا اللون : الدكتور طه حسين ، وإبراهيم عبد القـــادر المـــازنى ، وأحمد أمين .. وغيرهم .

ثالثا : من حيث الأسلوب :

وإذا نظرنا إلى المقالة من حيث الأسلوب وجدنا هذه الأنواع:

١-المقالة الأدبية :

وهى التى يهتم الكاتب فيهـا باختيـار الألفـاظ ، وجمـال الأسلوب، وهندسة العبارة ، والإيقاع الموسيقى ، كما يهتم بـالمزج بين الفكرة والعاطفة ، وحيوية التصوير والخيال ، ولا مـانع مـن اللجوء إلى بعض المحسنات البديعية ، والأدلة الخطابية .

٢- المقالة العلمية :

وهى التى يلجأ الكاتب فيها إلى توضيح الحقائق العلمية بألفاظ محددة ، وأسلوب دقيق ، وتكثر فى هذه المقالة المصطلحات العلمية، والأرقام الحسابية ، ويبتعد الكاتب فيها عن العاطفـة ، والخيـال ، والمحسنات البديعية ، وهذا النوع لا مجال له فى الدراسات الأدبيـة والبلاغية .

٣- المقالة العلمية الأدبية :

وهى التى يلجأ الكاتب فيها إلى توضـيح الحقـائق العلميـة بصورة مشوقة جذابة ، تراعى فيها الموضـوعية ، والدقـة ، فـى أسلوب جميل ، وصور توضيحية ، بمعنى أنه يجمع بـين الدقـة ، والإمتاع، والتأثير ، ومثاله : مقالات الأدب ، والبلاغة ، والفلسفة ، وعلم النفس ، وغيرها .

ومع استيفاء الخصائص المميزة لكل لون من ألوان المقالة ، نحن نرى أن هناك عناصر عامة مشتركة بين أنواع المقالة كلهـا ، وهى :

(أ) تحديد الموضوع .

(ب) ترابط الأفكار وتسلسلها ، وبعدها عن التفكك والتناقص .

(ج) الإقناع عن طريق سلامة الأفكار ، ووضوحها ، وتأييدها بالبراهين العقلية أو العاطفية على السواء .

(د) العرض الشائق ، الذى يجذب القارئ ، ويؤثر فى نفسه وفكره .

(هـ) تحقيق التكوين الفنى عن طريق ترابط الأفكار وانسجامها.

(و) القصر بحيث لا يتعدى بضع صفحات ، حتى لا يسمى بحثا، أو فنا آخر من الفنون الأدبية .

(ز) الذاتية ، فمهما كان موضوع المقال ، فإن الأديب أى أديب لا يستطيع أن يخفى عاطفته ، أو رأيه الشخصى .

(ح) النثرية ، فالمقال فن نثرى وليس شعرا لغلبه عنصر الفكر عليه ، وهناك مقالات أدبية تحشد فيها الصور ، والإيقاع الموسيقى، ومع كل ذلك فهدف العاطفة والخيال خدمة الفكر ليس إلا.

(ط) تنوع أسلوبه تبعا للأطر التى حددناها قبل :

* فالمقال الذى يعبر بأسلوب أدبى يهتم الأديب فيه باختيار الألفاظ الموحية ، والجمل الموسيقية ، والخيال الرائع ، والإيقاع المؤثر .

* والمقال الذى يعبر كاتبه بأسلوب علمى متأدب ، تظهر فيه الألفاظ الدقيقة ، وبعض المصطلحات العلمية ، بجانب بعض الصور التوضيحية ، والأسلوب الجميل .

* والمقال الذى يدور حول فكرة أو رأى ، يكون التركيز فيه على الجانب الفكرى من حيث الصحة ، والدقة ، والوضوح .

* والمقال الذى يدور حول مشهد ، أو ناحية نفسية ، أو اجتماعية ، يكون التركيز فيه على جمال العرض ودقته .

وقد ينصرف أكثر الكتاب إلى ما تقع عليه عيونهم ، من شخصيات، أو مشاهد جميلة خلابة ، أو مواقف ، أو أفكار ، ويأخذ الكاتب يستنطق كل تلك المواقف والمشاهد والخواطر البوح، ويفضى إليها بالأسرار ، وينصت إليها ، ومن هذا يكون لنا ألوان مختلفة ومتعددة من ألوان المقال لا يمكن لأى إنسان أن يحصرها مهما كان شأنه .

ألوان مختلفة من المقالة :

* **المقال التصويرى :**

وهذا اللون من المقال يعنى برسم صورة قلمية لشخصية بعينها من الشخصيات ، ويأخذ يبرز محاسن تلك الشخصية ، أو عيوبها ، ويظهر أوجه الإعجاب فيها ، وما يحيط بها من بواعث السخرية ، أو الفكاهة ، وما إلى ذلك .

وهذا المقال التصويرى إن هو إلا رسم لوحة تصويرية ، مثال ذلك الصور التى رسمها عبد العزيز البشرى ، ونشرها فى مجلة (السياسة الأسبوعية) ، وتناول فيها كبار الشخصيات التى عاصرها بأسلوب فكه ، فيه دعابة .

* مقالة النزال :

وهذا اللون المقالى " هو الذى ينازل الكاتب فيه خصيمه فى الرأى ، ويناوئه فى عقيدة أو اتجاه ، ويصارعه من خلال مقاله بطريقة تدل على قدرته الصحفية ، ومهارته السياسية ، ودهائه العقلى " (١) .

ويظهر هذا اللون المقالى عندما تكون هناك خصومة بين ناقدين أو أكثر حول قضية من قضايا الأدب أو الفن ، يحتدم فيها النقاش بين أخذ ورد ، فى صور مختلفة من أساليب العرض ، والتدليل ، والإقناع .

أو هى تلك التى تختلف حولها وجهات النظر المتعاركة ، فهذا يرى ما لا يراه صاحبه ، وله معتقد يختلف كل الاختلاف عن معتقد زميله (٢) .

ومثل هذا اللون المقالى مقالات الشيخ على يوسف التى كتبها فى صحيفة المؤيد بعنوان " قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء " ،

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٩٩ .

(٢) انظر : المعارك الأدبية بين زكى مبارك ومعاصريه ، د / محمد جاد البنا ص ٧٣ ، دار الكتاب السعودى ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ .

والمعارك الأدبية التى ثارت بين (العقاد) و (الرافعى) ، ونشرت بعض مقالاتها فى مجلة (الشروق) تحت عنوان (السفود) ، ومثل ما جاء فى الجزء الأول من كتاب الدكتور / طه حسين (حديث الأربعاء) ، ومثل ما جاء فى مقالات محمد حسين هيكل تحت عنوان " حديث اليوم " .

* المقالة الفلسفية :

وهى لون مقالى رحب متشعب ، متعدد النزعات ، تختلط فيه دقائق الفهم والتأمل بسبحات الخيال والتصوير والمثال ، تبحث فى النفس وتكوينها ، والخلق والوجود ، وإثبات الحقيقة ، أو نفى نتيجة، كل ذلك فى إطار علمى موضوعى .

وكتاب هذه المقالة يتناولون مسائل شتى من المنازع الفلسفية، التى تهم الإنسان أيا كان ، بما يكتنفه من تاريخ عقائدى ، وتراكم حضارى ، ومثاله المقالات التى عنى بكتابتها الدكتور / زكى نجيب محمود ، والتى حررها كفن قائم بذاته ، وليس جزءا من التحرير الصحفى .

ومن كتاب هذه المقالة أيضا : أحمد لطفى السيد ، وعلى أدهم، وأحمد فؤاد الأهوانى ، وغيرهم ممن اهتموا بالكتابات الفلسفية فى عصرنا الحاضر .

هذا وينبغي أن نشير إلى أن هناك سمات أسلوبية عامة تشترك فيها جميع أنواع المقالات [١] ، وهي :

(أ) وضوح الأسلوب : وهذا يقضى بأن يبتعد الكاتب فى أى مقال عن الألفاظ الغريبة ، وألا يعتمد على العامية ، أو يتكأ على الخيال البعيد ؛ وذلك لأن الغاية من المقال إنما هى توصيل الرأى أو الفكرة إلى القراء .

(ب) قوة الأسلوب : بمعنى أن يبتعد الكاتب عن العبارة الضعيفة ، وألا ترد فى كلماته وجمله حروف متنافرة ، ومن ذلـــك البعد عن الحشو والتطويل فى الجمل .

(د) جمال الأسلوب : ومن جمـــال الأســـلوب اســـتخدام الألفاظ والصور الخيالية المناسبة ، والمحسنات البديعية البعيدة عـــن التكلف .

---

(١) انظر على سبيل المثال ما قاله الدكتور / عبد القادر رزق الطويل فى " الخصائص العامة لفن المقال عند العقاد " (المقالة فى أدب العقاد) ص ٢٨٧ وما بعدها .

الفصل الرابع
فن المقالة والقضايا الأدبية

الوصف والتعريف:

لا نغالى إذا قلنا إن النقاد لـم يتفقوا على مفهوم محدد للمقالة الأدبية ؛ ويعود ذلك فى نظرى إلى تأخر نشأة المقالة إذا ما قورنت بالفنون الأدبية الأخرى (١) .

فمن الدارسين من يرى أن المقالة الأدبية هى التـى تعـالج قضية من قضايا الأدب (٢) ، بينما يرى آخرون أنها المقالـة التـى تتناول الموضوعات التى يمتزج فيها الفكر بالعاطفة ، فـى عبـارة واضحة منتقاة ، مع ملاءمة بين اللفظ والمعنى ، وما يشـيعه مـن إيحاءات (٣) .

ومن الدارسين مـن يذهب إلى ما هـو أبعـد مـن ذلـك ، وأوسع ميدانا للمقالة مـن التحديد السـالف ، فيحلقـون بهـا فـى

---

(١) انظر : محاضرات فى فـن المقالة الأدبية ، د / محمد عوض محمد . معهد الدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٥٩ م .

(٢) فى محيط النقد الأدبى ، د/ إبراهيم أبو الخشب ص ١٧٥ . الهيئة المصرية العامة ١٩٧٨ م .

(٣) المقالة فى أدب العقاد ، د/ عبد القادر رزق الطويل ص ١٧٠ . الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٩٧٨ م .

سماوات عالية من الإتقان ، والخيال ، والابتكار ، ويجعلونها تخاصم الجفاف والخشونة ، ومن ثم يدعون كاتبيها إلى التفنن فــى اختيــار الألفاظ ، وانتقاء العبارة الموحية ، وتهذيب الأسلوب ، بحيث تخرج المقالة قطعة فنية قريبة من روح الشعر .

إنها لا تختلف فــى نظر هــؤلاء عــــن قصــيدة الشــعر الوجدانى ، بكل ما فيها من حلاوة التعبيــر ، وجمـــال التصـــوير ، والتوهج العاطفى ، والعرض الشائق الذى يجمــع بــين الإيجــاز ، ودقـــة الملاحظة ، وخفة الروح [١] .

وأصحاب هذا الرأى الأخير يقسمون المقالـــة الأدبيـــة إلـــى قسمين :

(١) المقالة الذاتيـــة .

(٢) المقالة الموضوعية .

ومما يلاحظ على الذين يأخذون بهذا التقسيم أنهم ثقفوا شــيئا من الآداب الغربية ، أمثال الدكتور / زكى نجيب محمــود ، ولــيس بخاف علينا مقالاته التى ملأت صفحات الصحف فى أيامه .

وإزاء هذا الاضطراب والاختلاف نريد أن نحدد بكل وضوح المفهوم العام للمقالة الأدبية بأنها المقالة التى تبحث فى قضايا الأدب والنقد والثقافة ، وقد تخرج عــن ذلك فتصور قضــايا المجتمــع ،

---

[١] الفنون الأدبية وأعلامها فى النهضة العربية الحديثة ، أنيس المقدسى . ص ٢٣٠ وما بعدها ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٤ عام ١٩٨٤ م .

وتصف الرحلات ، أو ما يلفت النظر من جميل المشاهد وحسن التصاوير ، وغير هذا وذاك مما يخطر للنفس من مشاعر الفرح والحزن ، وأشواق وذكريات ، كل ذلك بأسلوب أدبي جميل ، يعرضه الكاتب مصطبغا بشخصيته [1] .

وعلى هذا الرأى فكل ما يكتب بروح علمية موضوعية في كل ما يعرض للكاتب من مسائل ، كالطب ، وعلم النفس ، وعلم اللغة ، ومشكلات المجتمع من ناحية علمية ، وقضايا السياسة ، والاقتصاد ، كل تلك مقالات لا صلة للأدب بها ، ولا يمكن أن ينعتها أحد بأنها مقالة أدبية ، لأنها لا تتصل بالصياغة الأدبية .

ويقول الدكتور/ محمد يوسف نجم فى تعريفه للمقالة الأدبية : " إنها قطعة نثرية ، محدودة فى الطول والموضوع ، تكتب بطريقة عفوية سريعة ، خالية من الكلفة والرهق ، وشرطها الأول أن تكون تعبيرا صادقا عن شخصية الكاتب " [2] .

ويعرفها الأستاذ / سيد قطب بأنها : " فكرة قبل كل شيء وموضوع ، فكرة داعية ، وموضوع معين يحتوى قضية يراد بحثها، قضية تجمع عناصرها وترتب بحيث تؤدى إلى نتيجة معينة ،

---

(١) مقدمة فى النقد الأدبى ، د/ على جواد الطاهر . ص ٢٦٢ . وانظر كذلك تعريف الدكتور/ أحمد هيكل لها فى : (تطور الأدب الحديث فى مصر) ص ٤١٦ . دار المعارف ، مصر ١٩٦٨ م .

(٢) فن المقالة ، د/ محمد يوسف نجم ص ٩٤ ، ٩٥ . دار الثقافة ، الطبعة الرابعة .

وغاية مرسومة من أول الأمر ، وليس الانفعال الوجدانى هو غايتها، ولكنه الإقناع الفكرى " [١] .

ويصفها الأستاذ أنيس المقدسى بأنها :

" لا تختلف كثيرا عن الشعر الوجدانى المعبر عن اختيـــارات الشاعر الخاصة ، فالقصيدة لا تــعد مــن الشعر الجيد إذا خلت من حلاوة العبارة وجمال التصوير، أو إذا جفت فجاءت بلا ماء أو رواء كذلك المقالة ، علــى أن جمال التعبير والتصوير فيها لا يعنى تكلف البدائع البيانية ، والتوهجات العاطفية ، بل يراد بهــا الاســتعراض السوى الشائق ، الذى يجمع بين الإيجاز ، ودقة الملاحظة ، وخفــة الروح " [٢] .

وعلى هذا فمجمل وصف هذه المقالة ما يأتى :

١ــ أنها قطعة نثرية .

٢ــ أنها محدودة الطول .

٣ــ تقدم فكرة ، أو موضوعا ، أو قضية جديرة بالتناول .

٤ــ يكون فيه انفعال وجدانى بارز .

٥ــ أن تتسم بالأصالة فتعبر عن ذات الكاتــب ، وأســلوبه ، وانطباعاته .

٦ــ تتسم بالإمتاع والإقناع .

---

(١) النقد الأدبى أصوله ومناهجه ص ٩٢ . بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٦٦ م .

(٢) الفنون الأدبية وأعلامها ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

٧ــ عباراتها واضحة ومنتقاة .

٨ــ فيها ما فيها من خفة الروح ، ودقة الملاحظة .

والحقيقة أن الحديث عن مقومات هذه المقالة هــو كالحــديث عن تعريفاتها وملامحها ، وما ينبغى أن تكــون عليــه موضــوعــا و أسلوبا ، وما ينبغى توافره فى كتابها ، فالوصول إلى تعريف جامع مانع فى كل ذلك أمر صعب وشاق .

ومما لا ريب فيه أن هذا اللون من الكتابة قــد تــأثر بعلــوم العصر الحديث ومعارفه المختلفة ، الإنسانى منها والتجريبى على حد سواء ، وتعددت المناهج فيها بقدر ما أفاد الكاتب من معارف العصر ، الأمر الذى يؤكد أن كل المحاولات التــى نبدلها نحن وغيرنا إنما هى محاولات تقريبية .

نشأة المقالة (المصادر والروافد)

أولاً : النشأة والتطور :

من الإنصاف أن نقول إن نشأة المقالة الأدبية وتطورها إنما هو مرتبط بتطور الصحافة ، فلقد نشأت المقالة في أحضان الصحافة ، وتكفلت الصحافة برعايتها وإذاعتها ، وخدمة أغراضها المختلفة ، لدرجة تجعلنا نقول إن قليلين هم أولئك الذين نشروا نتاجهم في كتاب دون أن يطلعوه على الناس من قبل في صحيفة من الصحف [١] .

والحق أن المقالة الأدبية في مصر ، وفي الوطن العربي لم توجد إلا مع الصحافة ، فبها تغير مفهوم الكتابة من كونها تأريخا ودرسا ، وتحقيقا علميا ، إلى نزوع فني جديد ، سماته الإحساس بمسئولية الأديب الوطنية ، والقومية ، والاجتماعية ، والدينية ، وما إلى ذلك .

ومن المناسب أن تكون الصحافة بداية حقيقية لبداية نشأة المقال الأدبي ، وتنوعه ، وتعدد مصادر كتابته ، ومن هنا رأينا روادنا الأوائل يجمعون بين الصحافة والأدب .

---

(١) فن المقالة ، د/ محمد يوسف نجم ، ص ٥٦ .

وللوقوف على ذلك بأمر تفصيلى سأعرض مراحل تطور المقالة الأدبية [١] :

المرحلة الأولى :

وهذه المرحلة هى مرحلة النشأة [٢] ، وكتاب هذه المرحلة يميلون فى كتاباتهم إلى أساليب عصر الانحطاط ، فهم يحتفلون بالمحسنات البديعية ، والسجع الغث ، والزخارف المتكلفة ، ومن أشهر كتاب هذه المرحلة : رفاعة رافع الطهطاوى ، وعبد الله أبو السعود ، وتنتهى هذه المرحلة بنهاية القرن التاسع عشر .

المرحلة الثانية :

وهى مرحلة التطور ، وتبدأ هذه المرحلة ببداية القرن العشرين ، وكتاب هذه المرحلة قد خطوا بالأسلوب الأدبى خطوات عظيمة ، فلقد خلصوه من السجع الغث ، والزخارف المتكلفة الممجوجة ، ومن بواكير كتاب هذه المرحلة : محمد عبده ، ومحمد رشيد رضا .

ولعل خير من يمثل أعلام هذه المرحلة المتطورة : أمين الرافعى ، ولطفى السيد ، وطه حسين ، والمنفلوطى ، ومحمد السباعى ، وعباس محمود العقاد ، ومحمد حسين هيكل ، وإبراهيم

---

(١) انظر الأدب العربى المعاصر فى مصر ، د / شوقى ضيف ، ص ٢٠٥ وما بعدها .

(٢) فن المقالة ، د/ محمد يوسف نجم ص ٦٥ ، ٦٦ .

عبد القادر المازنى ، وعبد القادر حمزة ، أولئك الذين كانوا يخلبون القلوب والعقول بمقالاتهم الشاملة ، التى تختلف باختلاف شخصياتهم ، ومقدراتهم البيانية .

وكان للكثير من هؤلاء مقالات أدبية تتناول شئون الأدب والثقافة ، تلك التى لم تلبث أن أفردت لها مجلات أسبوعية أو شهرية خاصة ، مثل : الهلال ، والمقتطف .

المرحلة الثالثة :

وهذه المرحلة هى مرحلة المقالة الحديثة ، وتبدأ بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ، وتستمر طيلة خمسين عاما تقريبا .

وقد شهدت هذه المرحلة ظهور مجلات أدبية غاية فى الأهمية مثل : (الرسالة) ، و(الثقافة) ، و (الكاتب المصرى) و(الكتاب) ، بل إنه ليمكن القول إنه على امتداد سنين هذه المرحلة أخذت مجلات مختلفة تظهر على الساحة معلنة عن نفسها .

ومن كتاب هذه المرحلة : أحمد حسن الزيات ، وأحمد أمين ، وزكى مبارك ، ومحمود تيمور ، وزكى نجيب محمود ، ومصطفى صادق الرافعى ، وقد امتازت مقالات هؤلاء بأنها أصبحت أثرا فنيا قيما يتسم بظهور الذاتية العاطفية ، وميلها إلى المقال القصصى ، مع مراعاة الثقافة العامة التى تتكفل بتربية أذواق الناس وعقولهم .

ولا بد أن نشير هنا إلى الكتب التى جمعت مقالات ، كتبها رواد هذه المرحلة فى دوريات قبل جمعها فى كتاب ، وصارت تمثل

هـذه المرحلة ، مثـل : (وحى الرسالة) وهو كتـاب فـى عـدة مجلات ، يضم الافتتاحية التى كان يكتبها أحمد حسن الزيـات فـى مجلة (الرسالة) فـى صـدورها الأول (١٩٣٣ ــ ١٩٥١ م) ، و(أباطيل وأسمار) لمحمود محمد شاكر ، وهو يجمع مقـالات لـه نشرها فى مجلة (الرسالة) .

المرحلة الرابعة :

وهذه المرحلة هى المرحلة الأخيرة ، وفيها تخلـت المقالـة الأدبية عن الصدارة ، وتركت المجال للمقالة السياسـية ، والمقالـة الفلسفية ، والمقالة الاجتماعية .

وتبدأ هذه المرحلة ببداية الثلث الأخير من القرن العشـرين ، ومن كتابها : على أمين ، ومصطفى أمين ، وسلامة أحمد سـلامة ، وأحمد بهاء الدين ، وإبراهيم نافع ، وفهمى هويدى ، وأحمد بهجت ، وصلاح منتصر ، وأنيس منصور ، وغيرهم .

ومن أهم ما يميز الأسلوب الكتابى عند هؤلاء ، هو الاهتمام بالمعنى ، وقصر العبارة ، والترسل ، والوضـوح ، والبعد عـن المحسنات البلاغية واللفظية ؛ لأن الكاتب ليس عنده وقت يمكنه من التفنن .

ولعل أبرز ما يميز المقالة الأدبية فى بداية النهضة ــ وعلى وجه الخصوص فى المرحلتين الثانية والثالثة ــ ذلك الإقبال الشـديد من الكتاب المتمرسين وغيـرهم علـى سـبر أغـوار المجتمـع ،

واستعراض مشكلاته علـــى صفحات الصحف فـــى هيئة نصـــوص أدبية ــ على رأسها المقالة ــ التى تشـــخص وتتأمـــل ، وتعـــالج وتقرح ، ومن هنا كانت المقالة الأدبية خير معـــوان علـــى إظهـــار مكنون آمال أبناء البلاد وطموحاتهم وتطلعاتهم .

ثانيا : روافد المقالة :

والواقع أن روافد المقالة الأدبية كثيرة ومتنوعة ، ونحن فـــى هذا المبحث سنتناول كل تلك الروافد لنرى بعض ملامح التأثير فـــى حركة هذا اللون الكتابى ، سواء أكان ذلك من مصـــادر قديمـــة ، أم كان من مصادر أخرى حديثة ، أم كان من روافد تتصـــل بطبيعـــة الكاتب ، وعصره وبيئته ، والأجواء التى أوحت بالنص الكتـــابى ، وسنحاول أن نتتبع ذلك من خلال تقسيم تأثرى لكل لون منه ســـماته المتميزة فى التأثير .

وفى رأينا أن كل هذه الروافد إنما هى أطر فنية مســـاعدة ، وروافد أدبية مكونة ومجددة ، يمكن أن تسمى جميعها بحركة تطور المقالة الأدبية ، وكلها فى الصميم عوامل طبعت المقالة وصبغتها ، فخرجت تشكل استجابة لها .

وهذه الروافد وإن أمكن عدها ضمن عوامل تهيئـــة ونهضـــة المقالة ، كالتعليم ، والصحافة ، والإذاعة ، والمكتبـــات ، وحركـــة الطباعة والنشر ، والبعثات والترجمة ، وغيرها ــ لكنها فيما نـــرى ذات أثر قوى فى توجيه فكر الكاتب ، ولها كذلك تأثير فى مضمون

المقالة ، يسير جنبا إلى جنب مع الأثر الذى أحدثته فى إطارها ، وأشكالها ، وألوان صورها ، وغيرها ، وهذا ما يجعلها تخالف عوامل النهضة الأدبية العامة .

وتأسيسا على هذا نقول إن هذه الروافد قد انفعلت بها نفوس الكتاب ، واستجابت لها ، وفى خضم ذلك كله وجد الكاتب نفسه يدفع دفعات كبيرة إلى إطار تطورى بعينه ، ويساعد بشكل أو بآخر على أن يتفنن فى أدائه الفنى ، وفى موضوعاته الكتابية ، فأخذ يسوقها بصورة تنم عن موهبة أدبية ، وفن رفيع .

وهذه هى الروافد التى أمدت المقالة الأدبية فى الموضوعات ، والمناحى الفكرية ، والملامح الفنية .

١ــ العوامل السياسية والاجتماعية :

فليس يخفى أن العالم العربى فى هذه الفترة ــ أى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وفى بداية القرن العشرين ــ كان يجتاز فترة متميزة فى تاريخه الطويل ، فلقد عانى من استبداد الحكم الفردى [1] ، وقامت الدول العربية بمحاولات عدة للتخلص من هذا الحكم التعسفى ، وما تبع ذلك من ثورات ، وتيقظ الوعى فى كل مكان من العالم العربى .

---

(١) راجع على سبيل المثال فى مصر : مذكرات أحمد عرابى ، أحمد عرابى ، دار الهلال فبراير ومارس ١٩٣٥ م .

كما أن الأمة العربية قد منيت بالاحتلال الأجنبى ، الذى كان سببا فى قطعها عـــن أسباب النهضة [١] ، كما كان سببا فى تعرض مصر للصراعات الدولية التـــى كانت كارثة على الأمـــة ومصـــيبه عليها .

وهذه الأحداث والاضطرابات السياسية كانت ذات فضل على مسيرة الأدب ، ذلك لأن تفاعل هذه الأحداث مع بعضها قد أثر فـــى الحياة الأدبية بشكل أو بآخر . يقول الدكتور/ زكـــى مبـــارك : " إن الأدب فى مصر لم يرتق إلا بفضل الفوضى السياسية ، وهى صورة من الفوضى الاجتماعية " [٢] .

وما يقال عن المشكلات السياسية يقال كذلك عن المشـــكلات الاجتماعية والاقتصادية ، لقد انتشرت الطبقية [٣] ، وبـــذر المحتـــل كثيرا من الأمراض والآفات ، مما دفع بالأمة إلى الثورة ، واتســـاع دائرة الدعوات الإصلاحية .

هذه هى معالم التطور البـــارزة فـــى النـــواحى السياســـية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، وما واكب ذلك من مؤثرات دفعت إلى

---

(١) تاريخ الأدب العربى ، أحمد حسن الزيات ص ٤١٨ . مطبعة الرسالة ، الطبعة الثالثة والعشرون .

(٢) الرسالة ، عدد ٣٥٠ ص ٤٨٧ فى ٩ صفر ١٣٥٩ هـــ ١٨ مارس ١٩٤٠ م .

(٣) انظر : فى أعقاب الثورة المصرية ، عبد الرحمن الرافعى : ٢ / ٣٢٩ . مطبعة الفكر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٦٩ هـــ ـــ ١٩٤٩ م .

دعم الكيان العربى . وكان لهذا كله أثره البالغ فى توجيه الحركة الأدبية بشكل أو بآخر .

إن الواقع الذى كان يتمثله كتاب المقالة قد طرأت عليه ــ بواسطة هذه العوامل ــ تغييرات كثيرة ، وتحولات اجتماعية ذات أثر ، وكان لهذا الواقع أثره فى تغير مسار المقالة فى موضوعاتها ، وفى المعالجات التى تمت حيالها .

٢ــ العوامل الفكرية والأدبية :

كان العالم العربى ــ وعلى وجه الخصوص مصر ــ مسرحا للحركات الفكرية طوال تاريخه الطويل ، وكان للفكر دور واضح فى مقاومة الاستبداد ، وكان للمفكرين الدور نفسه من أمثال : الأفغانى ، والنديم ، ومحمد عبده ، لقد حملوا جميعا لواء الثورة على الاستعمار ، وشاركوا فى إشعال الروح الوطنية والدينية والأدبية .

كما كان للطباعة والصحف دور كبير فى الحركة الفكرية والأدبية ، لقد وقفت الصحافة جنبا إلى جنب مع الكتب ، تعنى بالأدب ، وتصبح عامل جذب للجماهير إلى القراءة والاطلاع والتثقيف ، وتحمل لواء التجديد فى الدين ، والدعوة إلى الحرية والإصلاح [١] .

(١) الفكر العربى المعاصر ، أنور الجندى ، ص ٥٢ . مطبعة الرسالة .

ويهمنا بعد أن حددنا دور العوامل الفكرية والأدبية أن نجمل الحديث عن مصادر هذه العوامل ، والتي كانت ذات أثر خاص في فن المقالة بصفة عامة ، وفى المقالة الأدبية بصفة خاصة :

(أ) التراث العربى القديم

وهذا التراث كان له أثره في المقالة الأدبية : تنشئة أو تكوينا ، أو تجديدا لروحها ، وتطويرا لمضمونها وصورتها .

وليس من شك فى أن كتاب المقالة كانوا على متابعة دائمة ، واتصال مستمر بأمهات الكتب التراثية العربية ، وفى هذا دلالة واضحة على اعتدادهم بالتراث العربى ، واعتمادهم عليه فيما يكتبون .

ومن الإنصاف أن نقول إن التأثر بالتراث العربى يختلف فى درجة قوته وسعته بين الكتاب ، فالكتاب المحافظون يهتمون بالتراث أكثر من غيره ، بينما الكتاب المجددون الذين يجمعون بين المحافظة والتجديد يطبعون هذا التأثر بأرواحهم ، ويضيفون إليه من عواطفهم ، ويشكلون ذلك كله من تكوينهم وتصوراتهم للكون والحياة .

(ب) الثقافة الأجنبية

لا يستطيع أحد أن ينكر سريان تيارات الأدب الأوربى فـــى كتابات العرب ، وعلى وجه الخصوص تلك التى وصلت إلينا عـــن طريق القراءة للآثار العربية المتأثرة بالثقافة الغربية .

وما من شك فى أن كل ظاهرة أدبية حديثة فى المضـــمون أو فى الشكل تأثر بها كتاب المقالة العرب ، لها مصدرها فـــى الآداب الأجنبية .

ولو ذهبنا نلتمس أثر الأدب الأوزبى ، أو الثقافة الأجنبية فى النثر الحديث لوجدناه ملموسا عند كثيرين على رأســـهم : العقـــاد ، والمازنى ، ومحمد حسين هيكل ، ومحمود تيمور ، وطه حســـين ، ومحمد مندور ، وسلامة موسى ، وعلى أدهم ، وغيرهم .

وقد سبق أن قلنا إن الأدب العربى ظل خاليا من هذا اللـــون الفنى إلى العهد الذى بدأنا فيه نتأثر بالغرب ، وإن كان هذا لا يمنـــع من وجود بوادر للمقالة فى محاولات بعض الكتاب فـــى العصـــور القديمة ، إلا أن هذه المحاولات لم تتبلور بعد ، ولم تؤد بأصـــحابها إلى درجة التخصص فى فن المقالة .

ولا يعيب أدبنا العربى أنه مسبوق بهذا الفن ، أو أن يكون قد أخذه بمفهومه الفنى عن الأدب الغربى ، ذلك الذى بـــدأنا نهضـــتنا الأدبية الحديثة بنقل آثاره إلينا ، وبترجمة روائعـــه ومحاكاتـــه فـــى بعض أشكاله .

٣ــ التأثيرات الأدبية الحديثة :

وهناك تأثيرات أدبية حديثة أثرت فى كتاب المقالة الأدبيـــة ، وهذه فى الواقع ظاهرة وملموسة فى كتابات الأدباء المجددين ، وهى تحتاج لمن يدرسها ، ويبحث عن أسبابها ، ويدرك أسرارها ، ونحن نظن أن ذلك أمر غاية فى السهولة وعلى وجه الخصـــوص حينمـــا نستحضر ما كان للكتاب من علاقات وصداقات .

وأهم هذه التأثيرات ما يلى :

ــ الأدب المهجرى .

ــ الصحف والمجلات العربية .

ــ المصادر الأدبية .

ــ الجامعات .

ــ المنتديات والصالونات الأدبية .

ــ المعارك الأدبية .

كل هـــذه العوامل كانت بمثابة مثيـــرات حركـــت مواهـــب الكتاب ، وأثرت فى أفكارهم ، وأذواقهـــم ، وأفهـــامهم ، وأشـــعلت المعارك والخصومات الأدبية بينهم (١) ، تلـــك التـــى دارت " فـــى مختلف الأجناس الأدبية ، وأفادت الأدب كثيرا ، وطوعت الأسلوب الرصين لحمولة من الفكر الواسع ، المعبر عن النفس .. " (٢) .

---

(١) انظر : المعارك الأدبية ، أنور الجندى ، مطبعة الرسالة ، مصر١٩٥٨م .

(٢) المقالة فى أدب العقاد ، د/عبد القادر رزق الطويل ، ص ٨٨ .

إننا حين نتحدث عن المقالة الأدبية ، فإننا نرى أنها قد بدأت مع الظروف الجديدة ، والتغير الحضارى والاجتماعى والفكرى الذى بدأ يسود المجتمع ، حين أخذت عوامل النهضة تؤتى ثمارها ، وتؤثر فى حياة الناس وعقولهم وسلوكهم ، وتحدث تطورا كبيرا فى الذوق الأدبى ، وتسهم فى إذكاء النهضة الأدبية التى بدأت فى الازدهار فى بداية القرن العشرين الميلادى .

٤ـ النهضة التعليمية :

ونحن إذا رجعنا إلى الدور الذى لعبته العوامل السابقة فى سبيل تنمية المقالة والإعلان عنها ، والأخذ بيدها حتى تتطور وتصبح فنا مستقلا ، نقول إن هذا ليس وحده بل ارتبط بالعوامل السابقة عامل آخر قوى ، تسبب فى ازدهار المقالة وتطورها ، وهذا العامل يتمثل فى النهضة التعليمية الشاملة ، ووسائل الإعلام المختلفة كذلك .

هذه كلها تعد على رأس العوامل التى أمدت المقالة ، فانتشار التعليم يزيد من قراء المقالة ، وهذه الطبقة المثقفة من القراء عامل إيجابى يساعد بلا شك على كشف الألوان الفنية فى المقالة ، وبخاصة الألوان المرغوب فيها .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن التعليم يعمل على تكوين الفرد ثقافيا ، ويجعله يعبر بسهولة عن إحساساته ومشاعره وخلجاته ، وهذا الظرف هو الذى يناسب المقالة ، فهى خير وسيلة

يعبر بها الفرد المثقف عن رغباته وخلجات نفسه ، وهى أقدر الفنون النثرية على الإطلاق استيعابا للعوامل الثقافية والحضارية .

وبعد هذا العرض نستطيع أن نقرر دون تردد أن المقالة قد أصبحت دعامة كبرى من دعائم الأدب العربى الحديث ، وهى كفن تشكل ضربا قائما بذاته من ضروب الأدب وفنونه ، وقد شاعت كتابتها شيوعا واسعا ، حتى غدت فى وقت وجيز أهم فنون الكتابة ، وأضحت ممارستها طلبا للشباب ، لدرجة أنك إذا طالعت صحيفة يومية ، أو مجلة أسبوعية أو شهرية لا بد وأن تقع عيناك على مقالة أو مقالات تتبوأ مكانها بين صفحاتها وأبوابها .

بل إن المرأة قد شاركت فى ميدان المقالة بمقالات يتوفر لها العناصر الفنية ، والحق أنه كان لإسهام المرأة فى هذا الفن أمر يبعث على تطورها وذيوعها كفن أدبى يصور الحياة تصويرا صادقا، وهذا التصوير الصادق للحياة الإنسانية، ولتباين العلاقات البشرية والتجارب الحية،لا سبيل له حقيقة ما لم تشترك المرأة فيه .

خصائص
المقالة الأدبية المتميزة

المقالة الأدبية المتميزة لا تختلف كثيرا عن الشعر الوجداني المعبر عن اختيارات الشاعر الخاصة ، وعليه فلا بد وأن توضع لها شروط لازمة لصنعها ، تجعلها تتفق والمفهوم العام للمقالة ، وتجعلها كذلك تنفرد بخصائص تميزها عن سائر فنون القول النثرية.

وقد أفرد الدكتور / محمد بن عبد الله العوين مجموعة من السمات ، أوجب أن تصحب المقالة الأدبية الجيدة ، ومنها [1] :

أولا : تهيؤ الكاتب نفسيا ومزاجيا لهذا العمل .

ثانيا : أن يشعر الكاتب المقالى الأديب بالإمتاع والارتياح ، وهو ينثال وجدانيا على الورق ، ويحس بذاته تناغيه ويناجيها...

ثالثا : الكاتب المقالى المتميز هو ذلك الذى يرصد الحركة الإنسانية ، والخفق الوجدانى ، والرضا ، والغضب ، والسخط والارتياح...

رابعا : لا يحسن أن يكتب المقالى الأديب لقارئيه أسلوبا مستعصيا خشنا منمقا مدروسا...

خامسا : ومن غير اللائق بالكاتب الأديب أن يكون خشنا ، متوعرا فى روحه ، أو أسلوبه...

---

(١) المقالة فى الأدب السعودى الحديث : ١ / ٣٣ ، ٣٤ .

سادسا : إذا كان تأثير الفكرة صادقا ، واستجاب له الكاتب ، وأحسه إحساسا ملك عليه لبه ، فإن الانعكاس الوجدانى لذلك سيكون بالغ الروعة والإمتاع فى تكوين المقالة عفوا دون تكلف...

سابعا : واتباعا لما سبق لا يأتى مقال أدبى من غير ارتباط وجدانى وعاطفى بصاحبه... " .

والحق يدفع بنا إلى أن نقول إنه متى ما تيسرت للكاتب أدوات التحرير والكتابة ، من موهبة وحسن استعداد، وخطة منظمة ، وثقافة ومعرفة ، ومحصول لغوى ، واستخدام جيد للغه ، وغير ذلك — فمن المأمول من هذا الكاتب أن يخرج بمقالة غاية فى التوفيق [١] .

وهذا يدفع بنا إلى التحدث عن (أدوات التحرير والكتابة) تلك التى لا يستغنى عنها كاتب أيا كان شأنه ، لأنها تمثل منارة ترشده إلى التحرير الجيد ، والكتابة السليمة المؤثرة .

---

(١) انظر : فيض الخاطر ، أحمد أمين : ١ / ١٧٨ . مكتبة النهضة ، القاهرة ، الطبعة الرابعة .

العوامل التى تعين على الكتابة الأدبية

مما لا شك فيه أن الكتابة فى أساسها موهبة ، يستوى فى ذلك الكتابة العلمية والأدبية ، ولكل كاتب شخصيته الفردية التى تجعله يتخير لغة بعينها ، ويفضل طريقة عرض على أخرى ، كما أن لكل كاتب أيضا أسلوبه المتميز .

والحقيقة أنه لما كان أى كاتب لا يستغنى عن علم ، ولا يسعه الوقوف عند فن ، فإننا نرى أن كتابة المقالة ترتبط بعوامل أساسية ، ومهارات عدة ، وألوان من الاستعداد النفسى والعقلى ، وكلها تعين على أمور الكتابة .

ونحن نرى أن هذه العوامل لا تتجاوز أن تكون محاولات لإرشاد الكاتب المبتدئ إلى التحرير الجيد والكتابة السليمة فى لغتها ، المؤثرة فى طريقة عرضها ، والمقنعة بأحكامها وبراهينها . وإذا تمكن كاتب ما من هذه العوامل وهو فى أول الطريق أصبحت الكتابة أمامه عملية ميسرة محببة .

وهذه العوامل كثيرة ومتعددة ، وقد لا يسمح المجال هنا للحديث عنها كاملة . وقد أفرد أبو هلال العسكرى فى كتابه " الصناعتين " فصلا [1] كاملا يحتاج الكاتب إلى ارتسامه وامتثاله فى مكاتباته ، ومع ذلك فلم يعرض لكل هذه العوامل . يقول : "ينبغى أن تعلم أن الكتابة الجيدة تحتاج إلى أدوات جمة ، وآلات

---

(١) هو الفصل الثانى .

كثيرة ، من معرفة العربية لتصحيح الألفاظ ، وإصابة المعانى ، وإلى الحساب ، وعلم المساحة ، والمعرفة بالأزمنة والشهور والأهلة ، وغير ذلك " (١) .

وفى رأينا أن ذلك إنما يختلف باختلاف حال الكتابة وبحسب تنوعها ، فكل نوع من أنواعها يحتاج إلى معرفة عوامل معينة ، وإلى معرفة فن أو فنون تختص به .

وهذه هى أهم العوامل التى تعين على كتابة المقالة ، والتى يحتاج الكاتب إليها احتياجا أساسيا :

(١) قدرات الكاتب الشخصية (الموهبة) :

لا شك أن الكتابة الجيدة فى أساسها موهبة ، وإذا كان التحرير الجيد يعتمد فيما يعتمد على عوامل فكرية مكتسبة هى من صنع الكاتب ، ونتيجة من نتائج اجتهاداته .. كالثقافة وغيرها ، فإننا يمكننا أن نقول إن هذه العوامل المكتسبة على خطرها وبعد أثرها فى صناعة الكاتب لاتجدى نفعا إذا لم يساندها طبع ، أو تقف بجانبها موهبة فطرية ، فالكاتب الجيد هو الذى يضيف إلى قدراته المكتسبة على تنوعها ذكاء نادرا ، وبديهة سريعة ، بل إننا يمكننا أن نقول إن الأمر فى هذا كله مداره على الموهبة وجودة القريحة ، فالقليل من العوامل المكتسبة مع الموهبة خير من الكثير من هذه العوامل بدونها.

(١) تحقيق البجاوى وأبى الفضل ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ص ١٦٠ .

وإذا كان الكاتب صاحب قريحة ، وجيد الفطنة ، صائب الرأى ، حسن الألفاظ ، تتأتى له المعانى الجزلة فيجلوها فى الألفاظ السهلة ، ويختصر حيث يكون الاختصار ، ويطيل حيث لا يجد من الإطالة بدا .

ويتصل بالموهبة وفور العقل ، وجزالة الرأى ، لأن كلام المرء على قدر عقله ، وإذا كان تام العقل ، كامل الرأى ، وضع الأشياء فى مكاتباته فى موضعها ، وأتى بالكلام من وجهه ، وخاطب كل أحد بما يقتضيه الحال التى يكون عليها .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى المثل الأعلى فى كتابه الكريم فكان معجزا فى صياغته اللغوية ، ووضوح بيانه المقنع والمؤثر فى كل من قرأ آية من آياته ، أو استمع إلى تلاوتها .

كما أعطى رسوله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى أيضا فى استخدام اللغة ، وجعله مثالا فى البيان المقنع المؤثر ، فاستطاع توصيل أفكاره إلى قومه بطريقة تؤثر فيهم وتقنعهم .. وهذا بدون شك هو السبب فى قوة إيمان من آمنوا بالرسالة وأحكامها ، وبتعاليم الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ... ومثل هذا البيان المتسم بالوضوح والإقناع والتأثير ينبغى أن يكون هدف كل كاتب فى كل ما يكتب .

هذا وقد فاضل الله سبحانه وتعالى بين كل فرد وآخر فى مجال الكتابة ، فمنح كل كاتب أسلوبا متميزا ، وجعل له شخصيته الفردية ، ومن هنا أصبح لكل كاتب طبع خاص به ، وأصبحت له

موهبة فى مجال دون غيره ، فتخصص هذا فى الكتابة الدينية ، وتخصص ذاك فى الكتابة الأدبية ، وهكذا . بل ظهر لكل كاتب أسلوبه المتميز ، وأصبح القراء يعرفون شخصه فى تخير لغته ، وطريقة عرضه ، الأمر الذى يؤكد أهمية الموهبة الفردية ، وضرورة الاعتداد بها بجانب الأصول والعوامل المكتسبة التى تهدف إلى إرشاد الكاتب للكتابة الجيدة المؤثرة ، ثم نترك المجال بعد ذلك لإبراز الموهبة الفردية ، والتميز الإبداعى .

(٢) الإطار (الخطة) :

لا شك أن الكتابة هى الوسيلة الوحيدة للاتصال بين الكاتب والقارئ ، وعليها وحدها يعتمد الكاتب فى نقل أفكاره إلى القراء البعيدين عنه ، ولا شك كذلك أن رموز هذه الكتابة تدور فى أذهاننا ونحن نفكر قبل أن نصل إلى الصورة التعبيرية التى بها نعبر عن أفكارنا وخواطرنا .. ومن ثم كان لا بد من وجود إطار ، ووضع خطة ننظم بها هذه اللغة التى تدور فى أذهاننا ، ونرتبها ، ونخضعها لأصول وقواعد اللغة العربية ، حتى تصير لغة كاملة فى صورتها ودلالتها وتركيبها ، وحتى تكون خالية من أوجه القصور التى تصيب كتابات بعض الكتاب .

ولعل هذا هو السبب الأول والأخير فى لجوء كثير من الكتاب — حين ينشدون صورة تعبيرية مثلى لنقل أفكارهم وعواطفهم — إلى

كتابة مسودة أو مسودات عديدة قبل أن تظهر كتاباتهم أمام القراء فى الصورة النهائية .

هذه فيما أرى هى عملية التخطيط ، وذلك الإطار الذى فيه يكون الكاتب قادرا دون أدنى صعوبة على تحويل هذه اللغة التى تدور فى ذهنه إلى لغة كاملة فى صورتها ودلالتها .

والآن يحسن بنا أن نقول إنه ينبغى على الكاتب أن يكون ملما بالموضوع الذى يقدم على الكتابة فيه ، وأن يكون عارفا به ، وأن يعرف لماذا هو يكتب ؟ وماذا يريد توصيله إلى القراء ؟ .. ومن جهة أخرى ينبغى أن يعرف نوع الكتابة التى يكتبها ، مثل هذه الأمور وغيرها ينبغى أن تكون واضحة أمام الكاتب ، ماثلة فى ذهنه حتى يتمكن من كتابته ويفهم قراءه مقصده ، ويجعل مقاله مجسدا فى أذهانهم ، ويكون من ثم ما يكتبه مثمرا فى مضمونه ، مؤثرا فى طريقة عرضه .

(٣) ثقافة الكاتب :

إذا كان ولابد لكل كاتب من جملة من الفضائل تعينه على صنعته ، فأول هذه الفضائل وأهمها أن يكون قد جمع ألوانا من الثقافات الإنسانية تعينه على تحقيق الغاية من عمله ، وأن يأخذ نفسه بثقافة واسعة ومتنوعة ، وأن ينهل من كل تلك الألوان الثقافية التى يفيض بها عصره ، فيكون مؤرخا إذا عرض لكتابة التاريخ ، وفيلسوفا إذا عرج على الفلسفة ، وفقيها إذا خاض فى الفقه .

ولسنا فى حاجة إلى الإبانة عما تحققه هذه المعرفة وتلك الثقافة للكاتب من فوائد ، فهى من جانب تنمى ملكته ، ومن جانب آخر هى خبرة يضمها إلى خبراته ، وفى الحقيقة أنه قلما توجد صناعة من الصناعات إلا ولها ثقافة من جنسها ، وإفادة من التجارب التى سبقتها ، وأى كاتب كلما اتسعت ثقافته ، وزادت حصيلته ، سهل عليه صياغة المعانى ، والوقوف على مقصوده ومراده .

ونحن حين نلزم الكاتب بوجوب الاطلاع والثقافة لا نعنى أن يلتزم بكل رأى سلف ، أو أن يعمد فى كتاياته إلى مجاراة من سبقوه ، لأن ذلك فى رأينا يحد من حريته وانطلاقه ، وإذا تمادى الكاتب فى ذلك فإن هذا وحده هو الكفيل بالقضاء على شخصه .

ونحن ما دمنا نسلم بآثار الماضى فى حياتنا ، وببعد هذا الأثر فى حاضرنا ومستقبلنا ، نرى أنه لا بد من ثقافة لكل من يتصدى للكتابة أو لأى علم من العلوم ، أو صنعة من الصناعات التى تتطلب حذقا ومهارة ومعرفة بالجهد المتصل الذى بذله المتخصصون فيها. وهنا الآن سؤال لا محيد من الإجابة عنه وهو : ما الطريق إلى هذه الثقافة ؟

وفى رأيى أن الطريق الأمثل لهذه الثقافة هو كثرة الاطلاع وإدامة النظر فى المعارف العامة ، وليس غير ذلك من سبيل يوصل إلى المعرفة والثقافة ، ويتخرج به الكاتب المتخصص ، حيث يكون رأيه — غالبا — أقرب إلى الصواب ، وأدعى إلى الاحترام ، ولا

ينازعه في ذلك أحد إلا من كان مثله فى الثقافة والبصر بفنون العلم .

والثقافة العامة والاطلاع اليومى لهما أثر كبير فى نجاح أى كاتب فى مهنة الكتابة ، ولذلك فنحن ننتظر من كل من يتصدى للكتابة أن يعنى عناية تامة بالاطلاع فى كل وقت من أوقات حياته ، فإذا ما تثقف الكاتب ، وزاد اطلاعه ، انتظرنا منه استمرارا فى البحث ، وهكذا حتى يصير فى يوم ما خبيرا بمهنته ، ماهرا فيها ، مرتب الفكر ، منظم البحث . فالتاريخ يحكى أنه لم يتربع زعماء الفكر والثقافة والأدب فى كل عصر على عروشهم إلا بالقراءة الدائبة والاطلاع المستمر .

ولا شك أن ظروف العصر تقتضى دوام الاطلاع والقراءة ، وتتطلب نفس الظروف من الكاتب أن ينقطع للقراءة والاطلاع ، فالحال أن الكاتب الذى أغمض عينيه عن الاطلاع والقراءة فى المعارف العامة قد اختار لنفسه ركودا ذهنيا ، ووضع نفسه فى مرتبة يمكن أن ينازعه فيها القاصى والدانى ؛ ولا غرابة فى ذلك فهو حين رضى لنفسه ضعفا علميا يكون قد فقد سر قوته وعظمته .

ومن المؤكد أن يكون كل كاتب طالب علم دائما ، وألا ينقطع عن طلب العلم ما دام حيا ، ونحن نأمل للكاتب المبتدئ أن يكثر من البحث والاطلاع ، وأن يخصص جزءا من وقته للقراءة الخارجية والبحث الحر ، ولا يكفى أن يطلع على فن دون غيره ، فالحال يقضى بأن تكون مادته شاملة لكل جوانب الحياة ، وأن تكون

جديدة ، كى يكون فى قرائتها حياة ونشـاط ، ويكـون الموضـوع زاخرا بالآراء السديدة ، والأفكار الصـائبة ، والأسـاليب العربيـة الفصيحة .

ولسننا نعنى من كثرة الاطلاع والبحث أن يهتم الكاتب بحشو ذاكرته بمعلومات من هنا وهناك ، ولكننا قبل ذلك نطالبه بأن يحسن اختيار تلك المعلومات ، كى يكون لها أثر فى نفوسنا ، وأن يحيى ما فى ذاكرته بدوام القراءة والبحث والاطلاع ، وأن يتعمق مـا يطلـع عليه ، ويعرف كل ما يتعلق به معرفة تامة ... فعلى قدر جهده فـى ذلك يتوقف نجاحه أو إخفاقه ، فهو مسئول عن إجادته أو ضـعفه ، وعن تقدمه أو تأخره .

(٤) كثرة المحصول اللغوى :

الثقافة اللغوية تعد على رأس تلك الثقافات اللازمة للكاتـب ، وهذا اللون من الثقافة يعنى المعرفة الواسعة باللغة وأساليب التعبيـر بها .

ولا مرية أن اللغة هى رأس مال الكاتـب ، وأس كلامـه ، وكنز إنفاقه ، من حيث إن الألفاظ قوالب للمعانى التى يقع التصرف فيها بالكتابة ، وحينئذ يحتاج إلى طول الباع فيها ، وسعة الخطـو ، ومعرفة وسائطها : من الأسماء ، والأفعال ، والحروف ، والتصرف فى وجوه دلالتها الظاهرة والخفية ، ليقتدر بذلك على استعمالها فـى مجالها ، ووضعها فى مواضعها اللائقة بها ، ويجـد السـبيل إلـى

التوسع فى العبارة عن الصور القائمة فى نفسه فيتسع عليـه نطـاق النطق ، وينفسح المجال فى العبارة ، وينفتح له باب الأوصاف فيما يحتاج إلى وصفه ، وتدعو الضرورة إلى نعته " . (١)

وهذا العامل يعكس جملة ما حصله الكاتب مـن ثـروة فـى المفردات اللغوية فى مجالات القراءة والتعبير ، ومدى قدرته علـى فهم هذه المفردات وما يعنيه بها تماما ، ومدى ملاءمتهـا للسـياق ، لأن كثيرا من الألفاظ قد تميل إلى العموميـة فـى التفكيـر ، ودور الكاتب آنذاك أن يتصدى وهو يكتبها لتحديد دلالتها المقصودة ومـا يعنيه بها . فأنت حين تصف شيئا ما بوصـف معـين ، فعليـك أن تتوقف لتحدد دلالة هذا اللفظ فى بابه لكى يدرك القارئ ما تعنيه بهذا الوصف دون حاجة إلى عوامل أخرى مساعدة ، كنظرات العينين ، أو إرشادات اليدين .

والكاتب البصير باللغة يعرف أن الألفاظ تتفاوت مـن حيـث هى ألفاظ ، أى من حيث هى أصوات ومخارج وأجـراس حـروف تتوالى ، ويعرف ما هو منها عذب رشيق يحسن فى السمع ويعـذب فى النطق ، وما هو منها متوعر غريب تأباه الطبـاع وتنفـر منـه الأذواق ، ولا يحسن وقعه على الأسماع ، هذ بالإضافة إلى معرفته بصحة اشتقاق الألفاظ وسلامتها . ومثل هذا الكاتب يكون أقدر مـن غيره على إدراك ما يتطلبه المقام من ألفاظ دون غيرهـا ، ويكـون

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى : ١ / ١٥٠ .

موفقا إلى حد كبير فـــى تجنب ما يشبه هــذه الكلمـــات أو يقاربهـــا صوتيا .

ويظهر أثر هذا العامل أيضا فى أنه يمكن الكاتـــب ويجعلـــه على وعى بالرسم الصحيح للألفاظ ، ومثل هذا الوعى له دور غيـــر قليل فى تلافى الكاتب للأخطاء الإملائية ، فهو يحول دون وقوعـــه فى أخطاء قد يقع فيها غيره وهو يكتب .

فالأخطاء التى يقع فيها الكتاب فـــى مثـــل الكلمات المتشابهة أو المتقاربة صوتا ، لا يميز بينهما غيـــر التضخيم والترقيق ونحـــو ذلك مثل السين والصاد والثاء ، ومثـــل الدال والضاد ، ومثل التـــاء والطاء ، ومثـــل الذال والزاى والظاء ، أو الأخطاء التـــى تقع فـــى رسم الكلمات المهموزة أو المختومة بألف لينـــة ، أو الكلمات التـــى يحذف منها حرف أو يزاد فيهـــا حرف ، أو الأخطاء التى تقع نتيجة اجتماع حرفين متقاربين صوتا ، أو مختلفين رقـــة وتفخيمـــا فـــــى الكلمة الواحدة مثـــل : (يصطدم) و(يصطنع) ، ومثل (يتطلع) و(يتطلب) ، ومثل (سوط) و(صوت) ونحو ذلك ممـــا محـــل شرحه فى القواعد الإملائية ــ إنما مرده إلى ضـــعف المحصـــول اللغوى عند الكاتب .

(٥) الاستخدام الجيد للغة :

إن الكاتب وإن كان يحتاج إلـــى التعلـــق بجميـــع العلـــوم ، والخوض فى سائر الفنون ، إلا أن احتياجه إلى ذلك ليس على حـــد

سواء ، فمن هذه العلوم ما يحتاج إليه بصفة أساسية كاللغة التى منها استخدام الألفاظ ، والنحو الذى به استقامة الكلام ، وعلوم البلاغة التى هى مناط التحقيق والتحسين والتقبيح ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى .

والكاتب حين يكتب فإنه يخاطب قوما غائبين عنه ومجهولين له ، وهم يختلفون عنه دون شك فى الإحساس بوقع الألفاظ وتأثيرها ، يضاف إلى ذلك أنهم لا يعرفون شيئا مسبقا عن الموضوع الذى يخاطبون به .. واللغة حينذاك هى الوسيلة الوحيدة للاتصال ، وعلى درجة استخدامها يكون التأثير ويكون الإقناع .

ولذلك يحسن بنا أن نقول إن الكاتب إذا لم يحسن صياغة أفكاره فى لغة سليمة واضحة ومحددة ، وإذا لم يؤيد أحكامه بالأدلة والبراهين ، وإذا لم يراع فى عرضها الترتيب المنطقى السليم ، إذا لم يتم ذلك كله فإنه من المتعذر أن تصل أفكاره إلى قرائه بطريقة تؤثر فيهم وتقنعهم ، لأننا سبق أن قلنا إن القراء بعيدون كلية عن أية مؤثرات تساعد على إقناعهم والتأثير فيهم ، وهم فوق ذلك يختلفون عن الكاتب فى الإحساس بالموقف ، ولذلك فهم ليس لديهم استعداد للاقتناع أو التأثر بمجرد قراءة عدد من الجمل المقتضبة المتناثرة ، وما الذى يدعوهم إلى ذلك ؟ ! .

والاستخدام الجيد للغة إنما يتأتى عن طريق كثرة القراءة والمطالعة ، ومن ثم ينبغى أن تكون المطالعة أساسا للدراسات اللغوية فى المرحلة الثانوية ، وفى مرحلة التعليم الجامعى ، فبكثرة

القراءة والمطالعة يظهر الطالب نجاحا فى اللغة ، فتكثر معلوماته اللغوية ، ويرقى أسلوبه ، وتحسن عباراته ، وترقى كتابته .

ويجب أن ندرك أن درس المطالعة للدراسة اللغوية مهم جدا ، ومثل هذا النوع من القراءة والمطالعة ضرورى جدا فى المرحلة الثانوية وفى التعليم الجامعى ، ومثل هذا الدرس يمكن أن يعد درس لغة وقواعد ، ودرس بلاغة ، وأدب ونقد .

وكوسيلة للارتقاء بأسلوب الدارسين وتعويدهم الدقة فى استعمال اللغة يجب أن يعنى المعلم عناية شديدة باختيار موضوع القراءة ، فيختار مثلا قطعة نثرية ، ويأخذ فى قراءتها أمام الطلاب بحيث تمثل المعنى تمثيلا حسنا ، كما يأخذ فى دراسة هذه القطعة مع التلاميذ بتعمق وتفصيل ، فيعرف كل طالب استعمال كل كلمة وكل تركيب ، ويقف على ما فى العبارة من جمال ، ويحلل كل جملة ، ويقف على ما فيها من مجاز ، أو تشبيه ، أو استعارة ، أو كناية ، أو غير ذلك ، كما أن عليهم أن يعرفوا المعنى المراد من القطعة ، ويحاولوا أن يلخصوه فى عبارة من إنشائهم ، وفى استطاعة كل مدرس أن يضع أسئلة على القطعة التى قرأها الطلاب ويطالبهم بالإجابة على هذه الأسئلة ... بهذه الوسيلة وبغيرها يمكن أن نعود الطلاب على الاستخدام الجيد للغة .

ويجب أن يدرك الطالب أنه ينبغى ألا تكون المطالعة التى يقصد منها كسب الأفكار والعلوم والمعارف مقصورة على الكتب الدراسية التى وضعت للمواد الدراسية كالأدب والنقد ، والتاريخ ،

الجغرافيا ، والفلسفة ، وغيرها ، وإنما يجب أن تكـون المطالعـة عامة فتشمل كتبا غير دراسية ، حتى تنتقل بهم من عالم المقـررات دراسية إلى العالم الواسع ، وهو الحياة ، وإلى القراءة الحرة لكسب المعرفة والأفكار .

وأى كاتب يحتاج فيما نرى فى كل قضية يعرضها إلى حصر أفكاره وتحديدها ، ويحتاج كذلك إلى ترتيب هذه الأفكار ووضـعها فى تسلسل منطقى واضح يساعد القارئ على الانتقال من فكرة إلـى أخرى دون أدنى صعوبة أو ملل ، كما أنه يحتاج إلى تأييد أحكامـه بالأدلة ، وأن يشفعها بالبراهين الكافية وبقدر يمكن أن يحـدث فـى القارئ الإقناع والتأثير اللازمين .

وهـذا نفسه هـو السـبب فـى اشتراطنا وجود إطـار أو خطة . وإذا حدث لسبب ما وتعذر أن تصل أفكار الكاتب إلى قرائه بطريقة ترضيهم وتؤثر فيهم فإن الكاتب حينئذ لا يحق له أن يلوم إلا نفسه ، لأنه وحده دون سواه هو الذى عجز عن أداء هذه المهمـة ، وليس من ثم لوم يمكن أن يوجه للقارئ ، لأنه حيـل بينـه وبـين استيعاب الأفكار والنتائج التى توصل إليها الكاتب .

(٦) القرآن الكريم والحديث الشريف :

إن من تعاطى صناعة الكتابة لا يمكن أن يستقل باسـتخراج جميع المعانى بنفسه ، ولا يمكن كذلك أن يستغنى عن النظـر فـى كلام من تقدمه لاقتباس ما فيه من المعانى الرائقة والألفاظ الفائقة .

وقد أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بلغتنا العربيـــة ، واختارها لتكون لغة لأشرف رسله وخـــاتم أنبيائـــه . ولا شـــك أن القرآن الكريم بفصاحته وبلاغته قد غيـــر عقليـــة العـــرب ورقـــق عواطفهم ، فأصبحوا يختارون من الألفاظ أحسنها وألينهـــا ، ومـــن الأساليب أسهلها وأبلغها وأخذوا بعد تأثرهم بألفاظ القـــرآن الكـــريم يبتعدون عن الكلمات الجافة الغليظة .

وقد اهتم المسلمون بعلوم العربيـــة كـــالنحو ، والصـــرف ، ونحوهما ، لكى يحفظوا القرآن الكريم مـــن اللحن ، كمـــا اهتمـــوا بعلوم البلاغة مـــن بيان ومعان وبديع ، ليبينوا إعجاز القرآن الكريم .. ولا شك أن ذلك الاهتمام وتلك العناية إنما هما نتيجـــة لتـــأثرهم بالقرآن ، ولا شك كذلك أن هذا الاهتمام قد أثـــرى اللغـــة العربيـــة وطور أساليبها .

والقرآن الكريم هو الذى حفظ اللغة العربية وجعلها تبقى حية على مر العصور ، يضاف إلى ذلك أنه هو الذى أتاح لهذه اللغة أن تنتشر فى أنحاء المعمورة ، ولم لا والمســـلمون يحفظـــون القـــرآن ويتلونه فـــى صلواتهم كل يوم وليلة وإن كان بعضـــهم مـــن غيـــر العرب .

وإذا كان أدباء العربية فى الجاهلية قـــد أثروا فـــى قـــومهم لأنهم يكتبون أو ينظمون باللغة العربية ، فـــإن ذلـــك التـــأثير بقـــى محدودا ، وهو على أى حال وبكل المستويات لا يصل إلـــى تـــأثير القرآن الكريم ، فتأثيره يظهر فى الشعراء ، والخطباء ، والكتـــاب ،

فقد تأثروا بأسلوبه ، واقتفوا أثره ، حتى أصبحت أساليبهم تقتبس منه ، وتأثروا أيضا بمعانيه ، فمعانيهم لا تبعد عما اشتمل عليه القرآن الكريم ، لأنهم يأخذون من معان لا تنفد ، وكل معانيهم قد وسعها القرآن الكريم .

وقد ساهم الحديث الشريف بجانب القرآن الكريم في نشر اللغة العربية وتعليمها للمسلمين من غير العرب ، لأنهم أصبحوا يحفظون الأحاديث ، ثم نشأت دراسات معتمدة على الحديث النبوى الشريف ، وتلك الدراسات وسعت دائرة اللغة ، وقد شاعت ألفاظ وتعبيرات فى اللغة العربية بعد أن تناقل الناس أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

وغير خاف أنه كثيرا ما يكون مدار الكتابة على استخراج المعانى من القرآن الكريم ، ومن الأحاديث النبوية الشريفة ، لذلك كان على كل كاتب أن يحفظ كتاب الله تعالى ، وأن يجعله مصدر إلهامه ، يستمد منه ، ويعتمد عليه فى ثقافته ، وأن يجعل الحديث الشريف مصدره الثانى بعد القرآن الكريم ، فقد كان الصدر الأول من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم يحتجون بالقرآن الكريم وبالأحاديث النبوية ، ويستدلون بهما فى مواطن الخلاف والنزاع .

(٧) خطب ومقالات البلغاء :

والكاتب الجيد ألفاظه مختارة ، وتراكيبه متقنة ، وأساليبه مجودة ، ومعانيه مؤثرة ، وعلى منوال خطب الخطباء الفصحاء

ومقالات البلغاء الأبيناء نسجت الكتابة الجيدة ، لـذلك كانـت هـذه الخطب وتلك المقالات من الأمور التى يحتاج إليها الكاتب ، ولـم لا يكون الحال كذلك وهذه الخطب من مستودعات سر البلاغة ، ولـم يتعاطها أحد إلا القليل النادر من الفصحاء البلغاء ، وكان يقوم بهـا سادات العرب ورؤساؤهم ، وحسبها أن اصطنعها عظمـاء الحكـام والساسة وكبار القواد والغزاة الفاتحين .

(٨) التعبير عن الأفكار بالعبارات المختلفة :

اللغة العربية هى أهم مادة أساسية مـن المـواد الدراسـية ، وتعليمها يجب أن يكون أهم الأغراض التى نرمى إليها ونقصـدها ، لأنها وسيلتنا لدراسة المواد الدراسية وفهمهـا ، وبـدونها لا يمكـن درس ولا تعليم ، والتقدم فيها يساعد من غير شك على التقـدم فـى غيرها ، والنهوض بها نهوض بغيرها من المواد ، فهى اللغة التـى نعبر بها عن آرائنا وأفكارنا .

ويجب أن نصرح بأن من الواجب أن نشجع الطـلاب علـى التعبير عن أفكارهم بعبارات مختلفة ، حتى يعتادوا التعبيـر السـليم والكتابة الجيدة ، وإذا قرأ واحد منهم قطعة من القطع أو موضـوعا من الموضوعات كان علينا أن نكلفه بذكر معنى ما قرأ بعبارة مـن إنشائه ، من غير تقيد أو التزام بعبارة الكتاب أو أسلوب المؤلـف ، فبهذه الوسيلة نشجع الطالب على التعبير الشفهى حينـا ، والكتـابى حينا آخر .

ولكى نصل إلى الغرض الذى ننشده يجب أن يتعاون جميع مدرسى المواد الأخرى بهذه الناحية ، فبهذه الوسيلة نعود الطلاب الترجمة والتأليف من الصغر ، فإذا شبوا استطاعوا أن يعتمدوا على أنفسهم فى الكتابة والتأليف ، وأن يعبروا عن أفكارهم باللغة العربية أصح تعبير ، وهذا نفسه هو الطريق الوحيد الذى يشجع الطلاب على إلقاء الخطب والاشتراك فى المناظرات المختلفة الموضوعات .

ولا مانع من أن يكلف الطلاب بكتابة بحث عن موضوع تاريخى أو دينى ، كسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو سيرة أبى بكر الصديق ، أو عمر ، أو عثمان ، أو على — رضى الله عنهم — ، ومن عداهم من العظماء والأبطال . وطبيعى أن الطالب إذا اطلع على الكتب والمراجع التى تتصل بالموضوع ، وقرأ ما فيها من موضوعات ، فإنه سيختار مادته ، وسيرتبها ويكتبها منظمة منسقة بإرشاد أستاذه ، ويتعاون معه على إخراج البحث بدقة ومهارة . ولا يستطيع أحد أن ينكر أثر هذا التوجيه فى اعتماد الطالب على نفسه وتعويده الكتابة والتأليف ، والتعبير عن أفكاره بلغة عربية سليمة وصحيحة .

(٩) المعرفة بالقواعد اللغوية والبلاغية :

لا شك أن النحو هو قانون اللغة العربية ، وميزان تقويمها ، ولما كانت اللغة العربية هى رأس مال الكاتب أصبح بالطبع محتاجا إلى المعرفة بالنحو وطرق الإعراب ، والأخذ فى تعاطى ذلك كله

حتى يجعله دأبه ، كما أن عليه أن ينتبه إلى ترتيب الألفاظ ، وإلى موقع كل كلمة وما يستلزمه من إعراب ، وما أجمل لو عرف الكاتب أصل الكلمة ، وزيادتها ، وحذفها ، وإبدالها ، وما يحسن من تقديم لفظة على أخرى ، أو تأخيرها عنها لسبب بلاغى أو نحوى .

وللبلاغة ما للنحو ، فإذا عرفنا أن صناعة الكتابة مبنية على سلوك سبل الفصاحة واقتفاء سنن البلاغة أوجبنا على الكاتب المعرفة بعلوم البلاغة ، والإحاطة بمقاصدها ، ليتوصل بذلك إلى فهم الخطاب ، وإنشاء الجواب ، فرب كاتب بليغ أصاب الغرض فى كتابته فأغنى عن الكتائب ، وأعمل القلم فكفاه عن إعمال البيض والقواضب .

وإذا حدث وأخل كاتب ما بعلم من هذه العلوم ، وفرط فى التماسها فاتته فضيلتها ، وعفى على جميع محاسنه ، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر ردئ ، ولفظ حسن وآخر قبيح بان جهله ، وظهر نقصه ، وإذا أراد أن يكتب مقالا وقد فاتته هذه المقاصد مزج الصفو بالكدر ، وأخذ الردئ المردود وترك الجيد المقبول .

(١٠) القراءة والتدريب على التعبير الشفوى :

ولا يفوتنا ونحن بصدد الحديث عن أدوات التحرير الأدبى أن نأتى بهذا العامل الذى هو ضرورى ومهم للكاتب المبتدئ وبخاصة فى المراحل الأولى من التعليم ، فارتباط القراءة بالكتابة أمر طبيعى

، بمعنى أن الكتابة لا بد وأن يكون بجانبها نشاط لغوى آخر يتمثل ى القراءة المجدية .

فأى شخص يحس بالرغبة فى الكتابة فى المرحلة الأولى من حياته ينبغى أن يوجه نفسه لعملية القراءة ، وأن يتعرف على بعض الكلمات وأشكال بعض الحروف ، ثم بعد ذلك يتوجه إلى الكتابة ، لأن تعلم القراءة يساعد على تعلم الكتابة والعكس .

ثم إن مطالبة الطالب فى أول حياته التعليمية بالكتابة أمر قد يسلمه إلى النفور والسآمة .. ومن ثم عليه أن يتعرف أولا على الكلمات ، وأشكال الحروف ، والحركات والسكون ، وأن يكرر ذلك على فترات ، ومثل هذا الفعل أمر ضرورى ، وأعتقد أنه من الأمور التى تشوق الطلاب وتنهض بهم لا فى القراءة فحسب ، بل فى القراءة والكتابة معا ... حتى إذا ما انتهت الصعوبات الإملائية وجب العمل آنذاك على تقدم الطالب فى الكتابة ، واكتسابه ألوانا من المهارات فيها ، لأن الإملاء فرع من فروع اللغة العربية ، وهو كسائر فروعها يخدم التحرير العربى ، ويمد الكاتب بثروة من المفردات والعبارات التى تفيده فى التعبير تحدثا أو كتابة .

<u>(١١) عوامل أخرى :</u>

ويتصل بالعوامل السابقة أن يكون الكاتب على علم بالمعارف الدينية والأحكام الشرعية ، لأنه ينبغى أن يكون على درجة تجعله يميز بين الحق والباطل ، كما ينبغى أن يكون على درجة من

المعرفة ترشده إلى الطرق المعتبرة فى الكتابة ، وقديما قالوا : من سلك طريقا بغير دليل ضل ، أو تمسك بغير أصل زل . كذلك ينبغى أن يكون على علم بالفنون الأدبية ، فالكاتب الجيد هو الذى يكون حاد الذهن ، حلو اللسان ، جيد الجرس ، يستكثر من حفظ الأشعار الرائعة ، والأمثال والحكم ، ويطيل النظر فى الكتب الواردة عن العرب فى ذلك .

ومنها ما يحتاج إليه بطريق العرض ، كالطب والهندسة ونحوها من العلوم ، ومعرفة الألفاظ الدائرة بين أهل كل علم ، ومعرفة المشهورين من أهله ، ومشاهير الكتب المصنفة فيه ، ومعرفة الأنساب ومفاخرات الأمم ومنافراتهم ، وأيام الوقائع والحروب ، وربما احتاج الكاتب إلى ما هو دون ذلك فى الرتبة مما تدعو الحاجة إلى وصفه فى حالة من حالات الكتابة .

.. هذه الأدوات هى عدة الكاتب التى يجب عليه أن يحملها قبل أن يخوض فى هذا المعترك الذى لا يبرز فيه إلا الحاذقون .

وإذا حدث وخاض كاتب ما فى هذا الميدان وهو خالى الوفاض من هذه المعارف الضرورية ، بان جهله ، وكان ضرره فيما يسلك أكثر من نفعه .

وينبغى أن نشير هنا إلى أننا لا نلزم الكاتب بوجوب معرفة كل هذه الأدوات ، لأننا لو كلفناه وأوجبنا عليه معرفة كل هذه الأدوات لكنا كمن جعل الأصعب طريقا للأسهل ، والأشق مفتاحا للأهون ، وطبيعى أن طباع الكتاب ستنفر من الالتزام بكل هذه

أمور . يضاف إلى ذلك أن كل كاتب يجب أن يختار الطريقة التى
دته إليها تجارب من يسلك مسلكهم ، وينهج نهجهم فى الكتابة ، مع
اعاة الأصول العامة والقواعد المتفق عليها فى التربية وعلم النفس
، ويجب ألا ننسى أن المنهاج قد وضع للكاتب ، ولم يوضع الكاتب
للمنهاج .

ولنا أن نسأل ما هى الغاية التى ننشدها من أمور الكتابة ؟
وفى الجواب نقول : إن من هذه الغايات أن يتمكن الكاتب من
تصوير ما فى نفسه فى كتابة صحيحة وسليمة ، وأن تكون عباراته
معبرة عن رغباته فى الحياة ، ومترجمة عن تجاربه وأفكاره ،
وأن يعتاد القدرة على التعبير الفصيح ، والقدرة على التأثير فى
المستمع .

تلك هى الغايات المرجوة التى نتطلبها ونسعى إليها حينما
نعلم أحدا أمور الكتابة ونوجهه إليها .

وقد يبدو أن الوصول إلى هذه الغاية أمر صعب وشاق ، لما
يتطلبه هذا الأمر من الوقوف على وسائل كثيرة ومتعددة . ولكن
الأمل فى كل راغب ما يزال قويا ، فهو يستطيع بمهارته وحذقه ،
وببعض ما سيجده أمامه من طرق سديدة وإشارات صائبة ،
وتجارب حكيمة ، أن يستفيد مما أنتجته عقول الكتاب ، وأن ينتقل
بأسلوبه إلى الذروة العالية ، فيكون فى صفوف الكتاب المجيدين .

مناحى واتجاهات
فى المقـــالة الأدبية

مدخل

إن من يطيل النظر فى بواكير ، ومصادر المقالة الأدبيــة [١] من صحف ومجلات وكتب وغيرها ، سيجد ألوانا مختلفة من هــذا اللون الأدبى ، يصعب على الباحث أن يلاحقهــا جميعــا بالرصــد والدراسة والتحليل ؛ ذلك لأن الأدب فى مصر ـــ كغيره من الآداب العربية ـــ يحوى فى فنونه النثرية مشارب فكرية وأسلوبية مختلفة ، تقترب حينا وتتباعد أحيانا أخرى .

ونحن نود فى هذا الفصل أن نجمع الألــوان المختلفــة مــن المقالة الأدبية ، وأن نتعرف على مناحيها ، واتجاهات كتابها ، وأن نتتبع ذلك فى كل الفترات التى مرت بها المقالة ، ثم نقوم بتصــنيف ما يقع بين أيدينا من كل ذلك .

وبعد استقراء طويل أمكن أن نحصر مناحى المقالة الأدبيــة فى الألوان الأربعة التالية :

ـــ المقالة الذاتيــة .

ـــ والمقالة الاجتماعية .

---

(١) انظر : تطور الأدب الحديث فى مصر ، د / أحمد هيكل ، ص ٤١٦ وما بعدها .

ـــ والمقالة النقدية .

ـــ والمقالة الوصفية .

أما ما سوى هذه الألوان الأربعة فكثير ومتفرق ، وإن كان لا يستقيم إلى حد كبير مع السمات والشروط التى تتطلبها المقالة الأدبية ، ولا يمكن لكتابها أن يتمثلوا الخصائص الفنية تمثلا كاملا أثناء كتابتهم ، ومن أجل هذا لم تكن موضع اهتمام الناقد أو الدارس ، لضعف مقومات الأدب فى أكثرها .

وسنستعرض فيما يلى أمثلة ونماذج للألوان الأربعة التى ذكرناها ، ثم نتبع ذلك بأمثلة ونماذج أخرى لعدد من المقالات المختلفة عن الألوان السابقة ، لعل فى ذلك وقوفا على جوانب أخرى من ألوان مقالية ، صال وجال فيها الكتاب ، وارتقوا بها وبغيرها إلى مراتب عليا فى استشعار وظيفتهم ، وأداء ما عليهم من حق تجاه مجتمعهم وأمتهم ، فكان لهم إسهام طيب فى المقالات : السياسية ، والدينية ، والعلمية ، والفلسفية ، والخاطرة ، والرسائل ، وعرض الكتب ، وغير ذلك .

المقالة الأدبية الذاتية

تعريفها :

من الصعب أن نضع تعريفا محددا لأنواع المقالة بصفة عامة ، فضلا عن المقالة الذاتية ، ذلك لأن معظم آراء النقاد والدارسين تتلاقى فى كثير مما تذهب إليه فيها من تمييز الملامح والسمات الرئيسة لكل لون .

ثم إننا نجد شيئا من السمات والصفات الخاصة بالمقالة الذاتية فى كثير من ألوان المقالات الأخرى ، كالوصفية ، أو النقدية ، وغيرها ، وإذا كان كل أديب يخلع على كتاباته أيا كانت — وهذا أمر ضرورى فى الأدب — شيئا من ذاتيته ، فإن الحال يقضى بنا إلى أن نقول إن الخصيصة المتصلة بالذات لا بد من توافرها فى كل ألوان المقالة الأدبية .

وعلى هذا فحال المقالة الأدبية — وعلى وجه الخصوص الذاتية منها — هى نفسها حال القصيدة الشعرية ، فالقصيدة والمقالة الذاتية صنوان ، وليس بينهما من فرق إلا فى درجة الحرارة ، فهذه الحرارة تعلو وتتناغم فتكون القصيدة ، أو تهبط فتكون المقالة الذاتية (١) .

---

(١) انظر : جنة العبيط ، د/ زكى نجيب محمود ص ١٤ . دار الشروق ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م .

والمقالة الذاتية فى نظر الدكتور محمد يوسف نجم هى تلك التى " يصطنع كاتبها النثر الفنى وسيلة للتعبير عن إحساسه بالحياة وتجربته فيها " (١) .

وهى من وجهة نظر أخرى : " المقالة التى تعتمد على تأمل عميق ، وتجربة ذاتية ، وعناية بالأسلوب من النواحى الجمالية ، وأنها أوفى طولا ، وأكثر انطلاقا ، وأرقى سلاسة ، وأن محورها الأساسى الذى تدور حوله هو ذات المقالى ، بما تختزنه من تجارب ، وما تموج به من انفعالات " (٢) .

وعلى هذا فقوام هذه المقالة هو شخصية الكاتب ، وطريقته فى التعبير عن نفسه ، وما يعتمل فيها من تجارب حيوية ، والغاية الأولى فيها هو تصوير البيئة المكانية التى يعيش فيها الكاتب كما تتراءى فى إحساساته ، وهذا الامتزاج هو ما يميز مثل هذه المقالة عن مقالات العلماء وأبحاثهم (٣) .

وفى أدبنا الحديث الكثير من هذه المقالة ، فلطالما عبر أدباؤنا عن ذواتهم ، ووصفوا حالات نفوسهم بعيدا عن التعقيد ، وقد اختلفت أساليبهم فى تصويرهم هذه الحالات باختلاف أثر ما يستقبلونه ، وما

---

(١) فن المقالة ، ص ٩٨ .

(٢) المدخل لدراسة الفنون الأدبية ، من إصدار قسم اللغة العربية ، كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، ص ١٠٥ . دار قطرى بن الفجاءة للنشر ، قطر ، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ .

(٣) فن المقالة ، د/ محمد يوسف نجم ص ١١٤ .

تموج به حياتهم من دواعى الفيض ، وعوامل إبداع الأديب البيئية ، وباختلاف الطبائع والملكات .

ومن أشهر كتاب المقالة الذاتية : أحمد حسن الزيات ، ومصطفى صادق الرافعى ، وعباس محمود العقاد ، وطه حسين ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وتوفيق الحكيم ، ومحمود تيمور ، وغيرهم .

فجميعهم ينطلقون فى غناء نثرى جميل ، يجنحون إلى الطبيعة ، ويحملونها الأشجان ، ويبوحون لها بالأسرار ، ويفضون لها بالنجوى ، وقد خرجوا على مجتمعهم التقليدى ساخطين ناقمين ، باحثين عن حياة أخرى جديدة ، ينشدونها فى الخيال والحلم ، بعد أن لم تكن فى الواقع والحقيقة .

خصائص المقالة الذاتية :

يختلف الكاتبون فى سمات أعمالهم الأدبية ومميزاتها ، حتى ولو كانت تلك الأعمال متفرعة من ينبوع واحد ، كاختلاف الأشكال ، واختلاف الأساليب ، وما إلى ذلك .

وهذه هى أهم خصائص المقالة الذاتية :

١- استعمال ألفاظ المعجم الرومانسى فى سهولة وعذوبة .

٢- الولع بالصور المبتكرة المتخيلة ذات الطابع النفسى الداخلى .

٣- الاهتمام بالجانب الإيقاعى والجمالى ، واللفظى الشكلى .

٤- البعد عن الأسلوب العلمى .

٥- التصوير البيانى .

ويتناول كتاب المقالة الذاتية ضروبا مختلفة من فنون الحديث عن النفس ، وما يتصل بها ، أو يؤثر فيها ، من أسباب السعادة ، أو دواعى الشقاء ، سواء كانت منبعثة من ذات الكاتب ، أو من المجتمع الذى يعيش فيه ويحيط به .

إنها فى الحقيقة تصوير من جانب آخر لطبيعة الصلة بين المبدع ومجتمعه ، وما يسر فيها ويبهج ، وما يبعث على العتاب والتذمر .

والمقالة الموضوعية هى قسيم المقالة الذاتية ، حيث قسم بعض الأدباء والنقاد المقالة إلى قسمين : (ذاتية) و (موضوعية).

فأما الذاتية : فكما سبق القول هى تلك التى ارتبطت بشخصية قائلها ارتباطا جعلها تصويرا لها أو لبعض أحوالها .

وأما الموضوعية : فهى التى انصبت العناية فيها على الموضوع نفسه ، وانفصلت عن شخصية بانيها انفصالا كاملا ، وقد عمت المقالات الموضوعية حتى شملت جميع فروع العلوم الطبيعية والإنسانية (١) .

والحقيقة أن هذا الفصل بين القسمين أمر قد تصل صعوبته إلى حد الاستحالة ، والمقالة والحالة هذه تنمى إلى أظهر

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٠ .

الموضوعين فيها ، أو إلى الذى كان السبب فى إنشائها ، وهذا قد يخفى إذا لم يدل اللفظ عليه .

المقالة الأدبية الاجتماعية

والمقالة الأدبية الاجتماعية هى تلك المقالة التى تعالج أدواء المجتمع وأمراضه ، مثل الجهل ، والفقر ، والعادات والتقاليد البالية ، كل ذلك بأسلوب أدبى راق ، خال من الابتذال والمباشرة الفجة ، وفى صياغة هى قريبة من الصياغة الفنية الرفيعة .

والكاتب فى المقالة الاجتماعية هو الكاتب الأديب ، وليس الكاتب الاجتماعى وحسب ، ومن ثم فلا بد أن يكون " ممتازا فى ثقافته وعلمه ، وعقله وفكره ، وكياسته ورأيه ، يقف نفسه من الأمة أو الشعب موقف المصلح الذى يريد أن يصل نفسه بقومه بغية الوصول بهم إلى مستقبل أفضل ، وحياة أكمل ، وعيش أكثر سعادة ورغدا .. " (١) .

وليس يجهل أحد أن البلاد كلها – حينما بزغت أنوار النهضة – كانت تئن تحت وطأة الاستعمار ، وهذا هو السبب فى تأخر البعث الاجتماعى ، فلقد أقر المستعمر الأوضاع الاجتماعية السيئة ، ولم يوجه سياسة الحكومة نحو الإصلاح الاجتماعى ، ولم

---

(١) فى محيط النقد الأدبى ، د/ إبراهيم أبو الخشب ص ١٤٩ .

يجعله هدفا ينوى تحقيقه ، الأمر الذى جعل الأمة تتدهور اجتماعيا تدهورا بالغا .

ليس هذا فحسب ، بل إن المحتل قد بذر فى كثير من البلاد العربية كثيرا من الأمراض والآفات الاجتماعية ، مما سبب انحلالا اجتماعيا عم جميع الطبقات الشعبية فى مصر على السواء (١) ، فقد ذاع الربا ، وكثر المرابون ، وانتشرت الخمور والخمارات ، وعم الفقر ، والمرض ، وغير ذلك .

وهنا ظهر عدد من المصلحين ، وأخذوا يعكفون على دراسة أحوال المجتمع ، وجهر كثيرون منهم بدعوات إصلاحية تدعو إلى التمسك بالدين وبالمثل العليا ، وتحارب الفقر ، والجهل ، والمرض ، ودعوا كذلك إلى إنصاف المرأة ، وإخراجها من عزلتها ، ونادوا بتعليمها ، وتثقيفها حتى تستطيع أن تنهض بأعباء الأسرة ، وإعداد أبناء الأمة إعدادا يقفها فى مصاف الأمم المتمدينة (٢) .

وخير من يمثل هذا اللون من المقالات : قاسم أمين ، والمنفلوطى ، وهيكل ، والرافعى ، وأحمد أمين ، وأحمد لطفى السيد ، وأحمد حسن الزيات ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، والعقاد ، وغيرهم .

---

(١) راجع فى أعقاب الثورة المصرية ، عبد الرحمن الرافعى : ٢٦٣/٢ وما بعدها . مطبعة الفكرة ، القاهرة الطبعة الأولى ١٣٦٩ هـ ١٩٤٩ م .

(٢) انظر : تاريخ المسألة المصرية ، ترجمة العابدى وبدران ص ٢٩٠ وما بعدها .

هذا هو الميدان الذى صالت فيه المقالة الاجتماعية وجالـت ، إنها بمثابة أبحاث عامة لكل الأدباء ، يتنوعون فيها فى الأسـلوب ، وتختلف طرائق تعبيرهم .

فكل كاتب له أسلوبه الذى يلائم نفسه ، وكل أديب له وسيلته الخاصة به فى العرض والتوضيح . فالمازنى يستخدم الأسلوب الفكه الساخر ، معتقدا أن لهذا الأسلوب أثرا فى شد انتباه المخاطب ولفت نظره ، وأحمد أمين يكتب بأسلوب بعيد عـن الهـزل والسـخرية ، ويجنح قاسم أمين إلى الأسلوب الخطابى الثائر العنيف ، ويميل أحمد حسن الزيات إلى الأسلوب الهادئ الرصين ، وعليه فالسمات الأدبية فى المقالة الاجتماعية هى المعيار الذى ندخل به المقالة الاجتماعيـة فى دائرة (الفن الأدبى للمقال) ، بحيث إذا انتفى الشـرط الأدبـى خلت من إغرائها لنا بالدرس والتأمل ، وعددناها فى عـداد النشـر المقالى السريع الذى تمتلئ به الصحافة كل يوم .

ولا ينبغى أن يعنى دارس المقالة الأدبيـة الاجتماعيـة بمـا ينشره بعض الباحثين من دراسات علمية ، وأبحـاث دقيقـة تمـس المجتمع فى كثير من أموره ، كالتربيـة ، والأسـرة ، والـزواج ، والنمو ، والطلاق ، وخلاف ذلك ، فمثل هذه الأبحاث تلتـزم نهجـا علميا أكثر منه أدبيا ، ومن هنا تبتعـد عـن الطبـع ، والتـدفق ، والعاطفة ، وتخرج من دائرة التناول الأدبى .

وتمتلئ المقالة الأدبية الاجتماعية بـزخم اجتمـاعى يعكـس للقارئ عمق العلاقة والصلة بين الأديب والمجتمع ، ومدى ما لـدى

الكاتب المقالى من حرص على أن يأخذ مكانته فى الإصلاح والتوجيه .

إن أهمية المقالة الاجتماعية إنما تكمن فى أنها تعطى الباحث إيحاء تاريخيا عن مراحل التكوين الاجتماعى ، وتصور بشكل أو بآخر أسلوب التفكير الاجتماعى ، وما هى المؤثرات المختلفة التى تقف وراء أفراد المجتمع فى أحلامهم ، وآمالهم ، وقبولهم ، ورفضهم ، وغير ذلك (١) .

إنها تقف بنا على أسلوب أدبى خال من التعقيد والإحالة ، وبعيد عن التكلف والوعورة ، فكاتب المقالة الاجتماعية هو أقرب ما يكون إلى الوضوح والانكشاف ، وأبعد ما يكون عن الحوشى والغريب والغموض ، وفردية الهموم ، ولعله لذلك كانت المقالة الاجتماعية أقل ألوان المقالات الأدبية احتفاء بالتجويد فى الأسلوب الأدبى الذى كثيرا ما يعمد إليه الكاتب المقالى الموهوب .

<u>خصائص المقالة الأدبية الاجتماعية</u>

سبق أن قلنا إن هناك طائفة غير قليلة من الكتاب التزموا بمعالجة مشكلات الواقع الاجتماعى ، وأخذوا يسعون إلى الإصلاح ، لأنهم على قناعة من أن دورهم فى الحياة لا يقتصر على الإبداع

---

(١) راجع : أدب المقالة الصحفية فى مصر ، د/ عبد اللطيف حمزة .

الفنى ، والابتكار فى الصور والأساليب ، وتنسيق القصائد ، وتدبيج المقالات .

إن إحساس هؤلاء الكتاب بالواقع كان بالغا ، بل إن هذا الإحساس كاد يفقد كثيرا من المقالات كل ميزة فنية ، وليس ذلك إلا لاندفاعهم بشدة نحو الفكرة ، وإصلاح المعوج ،وتقويم المنحرف من أمور الحياة .

<u>ويمكن أن نلخص أهم الخصائص الفنية للمقالة الاجتماعية فيما يلى :</u>

١ ــ الاتكاء على الجملة الإنشائية .

٢ ــ العناية بالفكرة ، والاهتمام بالمعنى ، والاتجاه إلى التحليل والتعليل والإقناع .

٣ ــ الميل إلى السهولة والواقعية والوضوح .

٤ ــ البعد عن الخيال ، والدقة فى اختيار الألفاظ المناسبة للموضوع .

٥ ــ عدم الاتكاء على عنصر الفن مثل : الخيال ، والعاطفة والصور الموحية الجميلة ، والتراكيب الممتعة ، والألفاظ الموحية وغير ذلك .

٦ ــ الصدق فى العاطفة ، والدقة فى التصوير ، والتحرر من المحسنات البديعية .

٧ ــ إقامة الأدلة على الفكرة التى يطرحها الكاتب ويعالجها .

على أن أساليب الكتاب متفاوتة فى هذه الخصائص ، فبعضهم يميل إلى السهولة وأحيانا إلى الضعف ، ومنهم من يميل إلى الوضوح وسلامة العبارات ، ومنهم من يميل إلى الأسلوب الصحفى الخالى من الإتقان والتأثير إلا فى لمحات بعينها ، وبعضهم يميل إلى اللفظ القريب من الشاعرية ، والمثالية فى ذلك كله أن تأتى استجابة الأديب لنزعات الفن ، ودوافع القول ، وجدا ، وتفكيرا ، وإصلاحا .

ومن نماذج المقالة الاجتماعية ما كتبه الأستاذ / على أدهم فى قضية " الصراع الدائم بين الرجل والمرأة " لقد عرض هذه المشكلة باعتبارها أبرز القضايا الاجتماعية (١) ، وعبر فى بداية المقالة عن خطورة الخوض فى هذه القضية ، ثم تحدث عن حالة المرأة فى العصور المختلفة ، وكشف عن إعجاب الكثير من الكتاب بسير النساء .

نموذج لكتاب المقالة الاجتماعية
(الرافعى)

ولد مصطفى صادق الرافعى فى (بهتيم) إحدى قرى محافظة القليوبية بمصر عام ١٢٩٨ من الهجرة الموافق عام (١٨٨٠ م) ، وبها قضى شطرا من صباه ، ثم التحق بمدرستها

---

(١) لاحظ : نظرات فى الحياة والمجتمع ، على أدهم ، ص ٥٧ وما بعدها . دار المعارف ، مصر ١٩٧٨ م .

الابتدائية ، وقد حفظ القرآن الكريم وهــو صــغير . ولــم يحصــل الرافعى فى حياته على شهادات ذات قدر ، فــالمعروف أن أعظــم شهادة حصل عليها هى الشهادة الابتدائية ، وقد حصل عليهــا مــن مدرسة المنصورة عام ١٣١٥ هــ (١٨٩٧ م) وكانت سنه آنــذاك حوالى السابعة عشر عاما .

وعلى الرغم مما أصيب به الرافعى من مرض أضعف مــن صوته وأفضى بسمعه إلى الصمم ، فإنه قد انكــب علــى القــراءة والدرس والمراجعة ، وحصل معرفة ذات شأن فى الفقه والأصول ، والحديث ، وعلوم اللغة ، والتاريخ وعلوم الأدب ، والسيرة وهو يعد معلما من معالم الشعر الحديث ، وقد ظل أنموذجا رائعا للصبر حتى توفاه الله عام ١٣٥٦ هــ (العاشر من مايو عام ١٩٣٧ م) .

والحقيقة أنه قد دارت حول الرافعى دراسات كثيرة ومتعددة ، ومن الأسف أن أغلب هذه الدراسات لم توف أديبنا حقه ، وليس فيها من العمق ما يستحقه أدبه ، وقد ادعــى كثيــر مــن الدارســين أن الرافعى ما كان يقرأ إلا الكتب القدمية ، وأنه لم يقرأ منها إلا كتــب اللغة والأدب ككتب الجاحظ وابن قتيبة ، وأبى الهلال العسكرى .

وفضلا عن ذلك كله فإننــا إذا تجاوزنــا أولئــك الدارســين المعادين للرافعى (١) ، الذين كانوا يصدرون فى رأيهم عن أدبه عن

---

(١) من أمثال : سيد قطب ، والدكتور زكى نجيب محمود ، والعوضى الوكيل ، والدكتورة نعمات أحمد فؤاد ، ومحمد خليفة التونسى ، وأحمد عبد الغفار عطا .

موقف مضاد له ، وكانوا يظلمونه ، ولا يعترفون له بفضيلة غير ما يعيب ويسوء . أو تجاوزنا الدارسين المحايدين [١] ، الذين كانت كثرة عداوات الرافعى تصدهم عن الكتابة المنصفة خشية الحرج ، او تفاديا من الوقوع فى خصومات وعداوات ، فإننا نجد الدراسات التى دارت حول الرافعى قد وفت أبوابا فى أدبه ، وتركت أبوابا أخرى ـ وبخاصة شعره ـ الأمر الذى أدى إلى إسدال ستائر كثيفة من النسيان على (الرافعى الشاعر) .

ومن الدارسين المحايدين الذين أحسوا بالرغبة فى الانتصاف للرافعى الدكتور / مصطفى الشكعة ، فقد ألف كتابا بعنوان : " مصطفى صادق الرافعى ، كاتبا عربيا ، ومفكرا إسلاميا " [٢] ومن يقرأ الكتاب يلاحظ أنه ألم إلمامة سريعة ببعض فنون الرافعى ، وقد ركز الكتاب على الجانب الإسلامى فى أدبه ، كما ركز على الجانب البيانى عنده ، أما عن شعر الرافعى فإنه لم يذكر شيئا عنه إلا فى صفحتين ونصف هما ص ٢٣ و ص٢٤ وجزء من ص ٢٢ .

وهذا واحد يعد على رأس الدارسين الموالين للرافعى ، وهو تلميذه وصديقه الأستاذ محمد سعيد العريان ، وله عن الرافعى كتاب

---

(١) أمثال : عبد السلام هاشم حافظ ، والدكتور كمال نشأت ، ومصطفى نعمان البدرى ، والدكتور مصطفى الشكعة ، والدكتور على عبد الحليم محمود ، والدكتور عبد العزيز المقالح ، وغيرهم .

(٢) صدر هذا الكتاب فى بيروت عام ١٩٧٠ م ، كما أنه طبع مرة ثانية عام ١٩٧٨ م .

عنوانه " حياة الرافعى " كما أن له عددا كبيرا من المقـــاولات عـــن الرافعى . والحق أن كتابات العريان وإن كانت فاتحـــة الطريـــق وتمهيدا لمن جاء بعده من الدارسين لأدب الرافعـــى ، لكنهـــا تتســـم بصفة عامة بالسرعة ، وليس فيها مـــن العمـــق مـــا يســـتحقه أدب الرافعى .

ولنضرب مثالا آخر لأحد الموالين للرافعـــى وهـــو الأســـتاذ حسنين حسن مخلوف ، فقد كتب متأخرا تحت عنـــوان " مصـــطفى صادق الرافعى ــ حياته وأدبه " [١] . ومع دفاعه عن الرافعى جـــاء كتابه على أحد عشر فصلا ، وقد أغفل شعر الرافعى ، ولم يأت فى الكتاب بفصل عن (الرافعى الشاعر) :

والحقيقة أن الرافعى صاحب موهبة فطرية متعددة ، وقد قرأ فى كافة الفنون ، وزود نفسه بما يستطيع من معرفة وثقافـــة ، وقـــد اهتم بالفكر والفلسفة والاجتماع ، كما أنه مولع بالكتب المترجمـــة ، وكان يتوفر عليها قراءة وفهما ، وله ملكات تســـاعده علـــى الفهـــم والمراجعة والنقد وسبر أغوار ما يقرأ ، وهذا يتضح فى تناوله لنقـــد نص من النصوص ، أو فى تصديه لشرح فكرة ، أو بسط رأى من الآراء ، وهذا يعنى أن الرجل هو الذى يسيطر على ثقافته ، ولعـــل هذا هو السبب فى أنه عاش حياته فى معارك أدبية وفكرية متصلة ،

---

(١) نشرته دار الهلال فى سلسلة كتاب الهلال فى مايو ١٩٧٦ م .

وقد انتقد فى شعره المبكر الأوضاع التى لا تروقه ، وانتقد شعراء عصره ، وغير فى ترتيبهم .

والرافعى لم يخاصم ثقافة ، ولم يعاد معرفة . ورغبة منا فى تقديم الدليل ، وعدم الحكم على شىء من غير معرفة ودراية ، وتأكيدا للتخلص من أغلال المتابعة وخطل المشايعة ، وعدم الاكتفاء بترديد ما يقال وتكرار ما يشاع ، نأبى إلا أن نعيد النظر ، ونطيل القراءة والفهم فى أدب الرافعى ونركز الحديث حول جانب من جوانب أدبه وهو (شاعريته) الذى أرى أن الرافعى غبن فيه كثيرا ، فحرى بنا أن نهتم (بالرافعى الشاعر) وأن ندرس شعره وبخاصة بعد أن زالت أسباب الإحن ، وامحت ضروراتها ، وذهبت منافسات مخالفيه ومخاصميه مع الزمن ، ولم يعد بمقدور أحد أن يتهم الأستاذ الرافعى ، أو أن يقلل من شاعريته ، فهو شاعر نضجت وسائله ، واتضحت فى شعره معالم شخصيته ، ولم ينفصل فيه تحت أى ظرف من الظروف عن واقعه وعصره ، وغدا علما يشار إليه فى الشعر كما يشار إليه فى الأدب والنقد والبيان .

<u>ثقافته :</u>

إذا عرفنا أن الرافعى لم يحصل من الشهادات غير الشهادة الابتدائية أدركنا آفاقه الثقافية ، وأنه لا يعتمد على الموهبة فحسب ، وإنما أثرى نفسه بالقراءة وصقلها بالإطلاع . وإذا كان قد قال عن حفظه للقرآن الكريم وهو صغير : " كنت فى العاشرة من سنى وقد

جمعت القرآن كله حفظا وجودته بأحكام القرآن " [١] ـــ فإننا نـــدرك أن الرافعى كان يأخذ نفسه بالشدة ، وأنه لم يدع القراءة ما وجـــد [٢] إليها سبيلا ، وأن ثقافته عربية أصيلة تجمع بـــين الحفـــظ والفهـــم والرواية ، كما ندرك ما يصدر عنه الرافعى فى أدبه ، وأنه قد أتقن وسائله الأدبية إتقانا تفوق به على لداته .

وقد دارت ثقافة الرافعى حول :

(١) الثقافة العربية القديمة .

(٢) الثقافة العربية المعاصرة .

(٣) الثقافة الإنسانية العامة .

والحق أن الرافعى قد صال وجال فى هذه الألوان ، وأبـــرز ثقافة ومكانة ، وتبوأ مكانا اجتماعيا بمقالاته ما كان ليتبوأها لولاها ، ومن الذين شهدوا له بالثقافة والبراعة فى الإحاطة والمعرفة الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة . فهو يقـــول : كـــان الرافعـــى رحمه الله حجة على علوم اللسان ، ثقة فى فنـــون الأدب ، عليمـــا بأسرار اللغة ، بصيرا بمواضع اللفظ ، خبيرا بمواقع النقد ، ومحيطا بمذاهب الكلام ، وقلما تتهيأ هـــذه الصفات لغير المطبـــوعين مـــن الأدباء " [٣] .

---

(١) وحى القلم ، للرافعى : ٣ / ٣١ . الطبعة السابعة .

(٢) راجع " حياة الرافعى " لمحمد العريان ص ٣٣ . المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٥٥ م .

(٣) وحى الرسالة ١٩٣٧ .

وتتضح ثقافة الرافعى فى أعماله المبكرة والتى تتمثل فى :

(١) **مقدمة ديوانه الأول** : وقد كتبها وهو دون الثانية والعشرين من عمره ، وقد أثارت هذه المقدمة العلماء بما فيها من إحاطة وبيان ، وفهم وتمكن ، لدرجة أن عالما من علماء ذلك الزمان ظن أنها ليست من إنشاء الرافعى وإنما هى مسروقة (١) .

كما كشفت هذه المقدمة عن مدى فهم الرافعى لمعنى الشعر ، ومدى إدراكه للاتجاهات الفنية التى سلكها الشعراء والفروق الإبداعية التى كانت بينهم ، والواقع الذى لا شك فيه أن وقوف الرافعى على مثل تلك الأمور وهو فى مقتبل حياته الثقافية يؤكد موهبته الفطرية ، كما يؤكد غزارة اطلاعه ، وتوفره منذ وقت مبكر على القراءة والتحصيل .

(٢) **آراؤه الجريئة** : والمعروف أن الرافعى قد نشر آراء جريئة كانت لها آثار جليلة ، فقد نشر عام ١٩٠٥ م رأيا فى مجلة " الثريا " تناول فيه شعراء عصره ، وخالف فيه العرف الأدبى ، فغير فى ترتيب الشعراء وجعلهم فى طبقات ثلاث :

* الطبقة الاولى : عبد المحسن الكاظمى ، والبارودى ، وحافظ إبراهيم ، والرافعى .

* الطبقة الثانية : إسماعيل صبرى ، وشوقى ، وخليل مطران ، ومحمد توفيق البكرى ، وداود عمون ، ونقولا رزق الله ، وأمير

---

(١) حياة الرافعى ص ٤٩ .

الحداد ، ومحمود واصف ، وشكيب أرسلان ، ومحمد هلال ، وحفنى ناصف .

* الطبقة الثالثة : أحمد الكاشف ، والمنفلوطى ، وأحمد محرم ، وإمام العبد ، والعربى ، وأحمد نسيم .

ونشر فى شهر مارس من السنة نفسها (١٠٩٥ م) مقالة فى المقتطف بمناسبة وفاة البارودى فى ذكراه الأولى قال فيها عنه : " إنه شاعر فحل مجود ، ضيق الفكر ، ضعيف الحيلة فى إبراز المعانى واختراعها [١] .. وقد كرر هذا الرأى الجرئ عن البارودى مرة ثانية عام ١٩١٦ م فى رسالة بعث إلى تلميذة " أبى رية " [٢] .

وليس من شك فى أن مثل هذه الآراء تدل على ثقة الرافعى بنفسه ، وعلى تمكنه ومقدرته ، كما توقفنا على ثقافته الواسعة ، ولم يكن له أن يتصدى لمثل ذلك لولا تكوينه الثقافى الرحب ، ومعرفته المكينة ، وقدرته الواثقة ، تلك التى تجعله يتصدى لآراء جريئة ينأى عنها من يتقدمونه سنا وخبرة من أبناء عصره .

(٣) مؤلفاته العلمية والأدبية الجادة :

وهى مؤلفات عالم باحث ، يديم النظر ، ويعمل الفكر ، ويكثر التنقيب ، عالم له عقلية نقدية متحركة ، تطمح إلى التفوق والسموق .

---

(١) المقتطف مارس ١٩٠٥ م .

(٢) انظر " من رسائل الرافعى " ٤٣ ص ٢ . دار المعارف .

والمعروف أنه قد صدر للرافعى ديوان النظرات عام ١٩٠٨ م . والعجيب أنه قد صدر له – وهو فى الثلاثين – الجزء الأول من كتابه (تاريخ آداب العرب) عام ١٩١١ م ، وهو كتاب علمى جاد ، فيه جهد ونفاذ بصيرة ، وإحاطة ومنهاج ، كما أنه يعد تجديدا فى الدراسات الأدبية ، وعملا جديدا فى التأليف الأدبى ، فالرافعى نفسه هو الذى وضع منهجه ، وحرر خطته ، وجمع مادته ، وافتتن فى إخراجه . والذى لاشك فيه أنه لولا ما كان للرافعى من ثقافة واسعة لما كان باستطاعته أن يؤلف مثل هذا العمل العلمى الجاد ، الذى استقبله المجتمع العلمى فى مصر استقبالا ممتازا ، فأثنى عليه الأدباء ، وكتب عنه المبرزون من النقاد .

وفضلا عما صدر للرافعى من مطبوعات [١] فإنه ينفرد دون غيره بأمرين : الأول بما له من أعمال مخطوطة [٢] ، وشعر مبثوث فى الصحف والمجلات . والثانى بما له من رسائل ومقالات ،

---

(١) له فى مجال الشعر سوى دواوينه التى ذكرناها " النشيد المصرى الوطنى ١٩٢١ م " . وله فى مجال النثر غير كتابه " تاريخ آداب العرب " : " إعجاز القرآن ١٩١٢ م وهو الجزء الثانى من تاريخ آداب العرب فى طبعته الثانية ، و " حديث القمر " ١٩١٢ م و " المساكين " ١٩١٧ م ، و " رسائل الأحزان " ١٩٢٤ م ، و " السحاب الأحمر " ١٩٢٤ م ، و " تحت راية القرآن " ١٩٢٦ م ، و " أوراق الورد " ١٩٣٠ م ، و " على السفور " ١٩٣٠ ، و " وحى القلم بأجزائه الثلاثة .

(٢) انظر " من رسائل الرافعى " ص ٢٢٥ ، ٢٨٢ . وانظر كذلك " الأخبار " (مصر) فى يوم الجمعة ، الأول من أبريل سنة ١٩٨٦ م .

وأعمال علمية كاملة ، كتبها بخط يـده وأودعها عنـد غيره ليضع عليها اسمه [١] ، هذا بالإضافة إلى أفكاره وآرائه التى انتحلها الناس ، ولا سيما الأفكار الدينية الإسلامية .

ولعل أظهر ما يوقفنا على ثقافة الرافعـى الواسـعة والتـى خرجت عن حدود معرفة الأدب العربى إلى الفكـر العـالمى تلـك الرسالة التى أرسلها الرافعى عام ١٩١٢ م إلى تلميذه أبـى ريـة ، والتى تحث الطالب على ألا يدع القراءة ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وهى رسالة توقفنا على أستاذية الرافعى ، كما توقفنا على جانب من جوانب تكوينه الثقافى والأدبى [٢] .

أدب الرافعى :

أدب الرافعى أدب معبر عن صاحبه وعالمه ، وما يجيش به وجدانه ، وذلك الأدب ينظم الحياة التى عاشها الرافعى ، ويعبر عن نفسه وعصره تعبيرا رفيعا خاصا .

وأدب الرافعى وإن اختلف النقاد والدارسون حوله فإنه يعـد صوتا قويا للأصالة والتجديد القائم على فهم القـديم ، وقـد أجمـع الباحثون على أن معارك الرافعى الأدبية كان لها أثر بالغ فى تنشيط الحياة الثقافية وإيجاد جو من الحرية والنقاش .

يقول الدكتور عبد العزيز المقالح عن أدب الرافعى :

---

(١) انظر " من رسائل الرافعى " ص ١٠٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٢١ ، ٢٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ .

" والأعجب أن طه حسين والعقاد وغيرهما قد نصبوا من أنفسهم سدنة للجديد ، وأنصارا للتجديد ، فى الوقت الذى سعوا بكل ما ملكوا من شهرة أدبية أن ينصبوا من الرافعى صنما للتقاليد ، وداعية للتقييد والجمود وهو ما كان إلا داعية للتحول وهادما لصروح الجمود ، ولكن من داخل التراث ومن قلب الثقافة العربية ، وبعد أن اتسعت معرفته بهذا التراث واستوعب أصوله وأدواته ، حتى لم يفته منه شاردة ولا واردة ، وكان له بعد ذلك حق الاجتهاد والتنظير للجديد فقط ، صار بحق أحد أئمة اللغة ، وأجل أساتذتها فى العصر الحديث [١] .

والحق أنه من الصعب على أى باحث أن يحيط بأدب الرافعى وأن يقسمه إلى أقسام ، أو أن يتحدث عنه حديثا موسعا شاملا ، لذا فإننا سنختار شعر الرافعى ونربطه به من جهة ، وبالعصر من جهة أخرى ، ولا يؤثر فى بحثنا هذا أن هناك دراسات ـ تختلف كثرة وقلة ، واتجاها ومنهاجا ، قد اهتمت بأدب الرافعى [٢] ، فالحال أن الكثير من هذه الدراسات لم يهتم بالدور الذى اضطلع به (الرافعى الشاعر) ولم يتتبع أحد من الباحثين ذلك الدور تتبعا دقيقا ، ولم يعرضه أحد عرضا يلتزم بالموضوعية إلا فيما ندر ، وكثير من المعادين للرجل المخالفين له الذين يقفون منه موقفا مضادا ،

---

(١) عمالقة عند مطلع القرن ص ١٥٣ . دار الآداب بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤م .

(٢) انظر : مصطفى صادق الرافعى أديبا إسلاميا ، د/ إبراهيم عوضين .

يلتزمون بالظلم فى دراستهم لدوره ، وينظرون إليه بعين الـــبغض ، ويسعون للطعن عليه ورميه بكل نقيصة .

وقد كتب الرافعى عدة مقالات ضـــمنها كتابـــه (السـحاب الأحمر) ومنها مقال عنوانه : (الصغيران) والذى يصور فيه حب الأم لأولادها ، ومدى إعجابه بهذا الحب ، وقد سيطرت على الكاتب فى النص عاطفة الإشفاق والعطف ممتزجة بالحزن والأسى .

ومن هذا النص يقول :

" ... يا من لا إله إلا هو .. من سواك لهاتين النملتـــين فـــى جنح هذا الليل الذى يشبه نقطة من غضبك ؟

لقد أخرجتهما فى هذا الضياع مخرج أصغر موعظة للعـــين تنبه أكبر حقيقة فى القلب ، وعرضت منهما للإنسانية صـــورة لـــو وفق مخلوق عبقرى فرسمها لجذب إليها كل أحزان النفس ، صورة الحب يمشى متساندا إلى صدر الرحمـــة فـــى طريـــق المصـــادفة المجهولة من أوله إلى آخره ، وعليهما ذل اليتم من الأهل ، ومسكنة الضياع بين الناس ، وظلام الطبيعة وكآبتها .

رأيت الطفلة وقد تنبهت فيها لأخيها الصغير غريزة أم كاملة ، فهى تشد على يده بيديها معا ، كأنها مذ علمت أنها ضائعة تحاول أن تطمئن أخاها إلى أنه معها ، ولن يضيع وهو معها ــ فيا لرحمة الله .

وقد أسندت منكبه إلى صدرها وهى تمشـــى ، فـــلا أدرى إن كان ذلك لتحمل عنه بعض تعبه فلا يتساقط ، أو ليكون بها أكبر من

جسمه الضئيل فلا يخاف ، أو لأنها حين لم تستطع أن تفهمه ما في قلبها بلغة اللسان ، أفاضته على جسمه بلغة اللمس ، أولا هذا ولا ذاك ، إنما هى تستمد من رجولته الصغيرة حماية لأنوثتها بوحى الطبيعة التى رسخت فيها " .

فهذا النص من مقال اجتماعى طويل يوازن فيه الرافعى بين حب الأم وحب العاشقين ، وقد عرض فيه موضوعا اجتماعيا وهو ضياع طفلين من أهلهما ، وحيرتهما وخوفهما ، وقد اتخذ الكاتب من هذا الحدث منطلقا ليثبت من خلاله أن حب الأم هو أقوى ألوان الحب وأبقاها وأدومها من الحياة .

والحقيقة أن هذا النص قد تحقق فيه الكثير من خصائص أسلوب الشعر ، حيث الدقة فى اختيار الألفاظ الموحية ، وقوة العاطفة وصدقها ، والصور الخيالية الرائعة ، والجمل الموسيقية ، والخيال الكلى والجزئى .

والنص يشير إلى الاتجاه الأدبى الذى يسير عليه الكاتب ، وهو الاتجاه المحافظ ، ذلك الذى يميل أصحابه إلى الثقافة العربية الأصيلة ، وإحياء التراث ، والتأثر بأساليب القدماء ، والتأثر كذلك بالثقافة الدينية . كما أنه يشير إلى إنسانية الرافعى ، تلك النزعة التى جعلته يخوض فى تجارب أدبية جريئة شعرية كانت أم نثرية .

يقول الدكتور / أحمد الحوفى عن شاعرية الرافعى :

" يتجلى لمن يتتبع حياة الرافعى ويدرس شعره ونثره أنه لم يكن شاعرا فى قالب إنسان ، بل كان إنسانا فى قالب شاعر ، لأن الشاعرية قوامه وكيانه " (١) .

المقالة الأدبية النقدية

اختلفت وجهات نظر النقاد والدارسين حول مفهوم المقالة النقدية ، ففريق يراها تلك المقالة التى تقنن للمسائل الأدبية ، وتضع للقضايا الأدبية والنقدية ضوابط ومفاهيم ، وأصحاب هذا النهج يدققون فى النص المنقود ، لأن النقد عندهم علم قائم على قيم علمية نقدية .

وفريق آخر يراها المقالة التي يسعى بها كاتبها إلى إبانة رؤاه فى مسألة أدبية ، أو ما يقبله ذوقه أو يمجه فى نص إبداعى ، كل ذلك فى أسلوب فنى متدفق لا يشوهه جفاف الحقائق العلمية .

على حين يطلق آخرون المقالة النقدية على المقالة التى تعالج قضايا مختلفة : اجتماعية ، وسياسية ، وأدبية وغيرها ، ومن هنا تختلط الألوان المقالية فى ظل هذه التسمية ، ولا يعرف النقد فى الأدب من سواه .

والذى نعنيه بالنقد هنا هو ما يكتبه المقاليون من نقد للإبداع الأدبى أو لبعض آراء ومفهومات الأدباء ، وأساليب تعبيرهم فى أعمالهم الأدبية ، أو فى قضايا الأدب بعامة ، وما يصطرع حول

---

(١) أضواء على الأدب الحديث ص ١٩٣ . دار المعارف ، مصر .

ذلك مما يسمى (بالمعارك الأدبية) التى تتصل بقضايا الأدب والنقد والثقافة .

والمقالة النقدية بهذا المفهوم كثيرة ومتوافرة ، وهى تحظى بالنصيب الأوفر فى الأدب المقالى ، وقد أفردت لها مجلات خاصة أسبوعية أو شهرية ، بيد أنها تختلف باختلاف مرجعية الكتاب ، فبعضهم يعتمد على المنهج التاريخى ، وبعضهم يعتمد على المنهج النفسى ، والبعض الآخر يتكئ على المنهج الواقعى ، بينما يلوذ الآخرون بالمنهج الرومانسى ، وسعى آخرون إلى التعبير عن مدرسة نقدية بعينها ، وهكذا .

<u>خصائص المقالة النقدية :</u>

ظهر فى أدب المقالة النقدية ميل كبير إلى فهم ما تضطرب به حياة كتابها من أحداث ومؤثرات ، وقد أخلص أصحاب هذه المقالات لها ، لأنهم رأوا أن مهمتهم فى الحياة هى التقويم والنقد ، فهم يعتقدون أن وظيفة الأديب لا تقل عن وظيفة المصلح الاجدتماعى .

وهذا إجمال لخصائص المقالة النقدية :

١ ــ قد تتضمن المقالة النقدية جوانب إبداعية .

٢ ــ المقالة النقدية تكتب للمتخصصين ، ومن ثم فهى تتسم بالاهتمام بوضوح الأفكار ، وقوة الصياغة ، واختيار الألفاظ .

٣ ـــ تهتم المقالة النقدية ببيان وظيفة الأدب ، وتوضيح مكانة الأدباء في المجتمع ، ودورهم في الرقي به إلى ما يحملونه من قيم ، وما يحلمون به من مثاليات .

٤ ـــ ظهرت في المقالة عند البعض دعوة إلى واقعية الأدب ، بمعنى أن يكون الأدب قريبا من الحقائق .

٥ ـــ تتطلب المقالة النقدية من صاحبها أن يكون محيطا بفنون الأدب المختلفة ، وأن يكون لديه حس قوي لتقديرها حق قدرها ، هذا فضلا عن الثقافة الواسعه والاستخدام الجيد للغة .

٦ ـــ تعتمد المقالة النقدية على التذوق الأدبي [١] ، كما تعمد على وضوح عاطفة الناقد .

٧ ـــ هذا فضلا عن الطبع ، والعفوية ، وامتلاك أدوات الكتابة .

كتابها

وينبغي أن نقول قبل أن نختم الحديث عن المقالة النقدية إن هذه المقالة قد اتسعت آفاقها في العصر الحديث لتوفي باحتياجات الأدب والأدباء ، فظهرت مقالات متعددة ذات موضوعات متفرقة ومتشعبة تشعب فروع الأدب وموضوعاته واتساعها ، ولاعجب فالقضايا الأدبية كثيرة ومتشعبة .

---

(١) انظر : أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد الأدبي ، د / محمد رجب البيومي ، ص ٣٤ وما بعدها .

ومن أشهر كتاب هذه المقالة : أحمد أمين ، وأحمد الشايب ، فى (الأسلوب) وهيكل فى (أوقات الفراغ) ، وعبد الحميد حسن فى (الأصول الفنية للأدب) وطه حسين فى (حديث الأربعاء) ، وعباس محمود العقاد فى (ساعات بين الكتب) ، وإبراهيم عبد القادر المازنى فى (حصاد الهشيم) ومحمد حسن عواد [1] فى (خواطر مصرحة) ، فقد كتب كل هؤلاء وغيرهم عن " رسالة الأدب " وعن " الفن للفن والفن للحياة " ، كما كتبوا عن " التقليد والتجديد فى الأدب " ، وكتبوا " عن الشكل والمضمون " ، وعن " الأسلوب " ، وغير ذلك مما يتصل بالأدب بصلة مباشرة أو غير مباشرة .

ومما يلاحظ على كتاب هذا اللون أنهم فى غالبيتهم يمارسون النظم إلى جانب كتابة المقال ، كما يلاحظ أن جل مقالاتهم تعنى برصف الكلام وتنسيقه ، كما تعنى بضجيج الألفاظ ، وليس بخاف على أحد مقالات الدكتور طه حسين ، والعقاد ، والمازنى ، تلك التى ملأت صفحات الصحف والجرائد فى أيامهم .

يقول محمد حسن عواد فى مقال بعنوان " تحليل ولى الدين يكن : " إعجابى بالكتبة العصريين أو الكرام الكاتبين يكاد يكون منحصرا فى أمثال ولى الدين يكن ، والمنفلوطى ، وأمين الريحانى ، والعقاد ، والآنسة مى ، وسلامة موسى ، وهيكل ، والمازنى ، من

---

(١) أديب سعودى ولد عام ١٩٠٢ م .

الكتبة الأحرار. وهؤلاء مع الرابطة القلمية : جبران ، نعيمة ، عريضة ، أبى ماضى ، .. إلخ ، كما أن إعجابى بالشعر الكلاسيكى العصرى أعنى النوع المعروف بالشعر الهندسى منحصر تقريبا فى شعر الأول من هؤلاء ، وشعر بشارة الخورى ، وفؤاد الخطيب وآخرين لا أتذكرهم الآن . هؤلاء هم الشعراء الأحرار . سقيا لقلمك يا ولى الدين ، لولى الدين يكن بأدبه العام نفسيات ثلاث :ولى الدين الشاعر المبتكر ، ولى الدين الكاتب المفكر ، ولى الدين الناقد الحر ، فى أسلوب هذا الكاتب الشاعر النابغة رنة موسيقية تقيم الأنفس وتقعدها ، مصوبة بها ومصعدة إلى الحقيقة لا إلى الخيال ، إلى فكر حى لامع ثمين ، كالجوهر فى أطباق الصدف ... الكاتب الجبان ، والكاتب الخيالى الصرف ، والكاتب الذليل النفس ، عقبات فى نمو الكتابة العصرية .. فى قلم ولى الدين كاتبا وشاعرا – وفى أفكاره الحرة تجد العبقرية والنبوغ .. (١) " .

هذه هى المقالة النقدية ، وهذا هو الجهد الكبير الذى قام به أدباؤنا ونقادنا المحدثون حيالها ، من حيث الرأى ، والذوق ، والانطباع الذاتى عن العمل الأدبى وآثاره فى نفس الناقد ، والعاطفة، والخلق الفنى ، والتجارب الشعرية ، والشعر والفكر ، والشعر والفلسفة ، هذا فضلا عن النظريات النقدية وأثرها (٢) .

---

(١) خواطر مصرحة ص ٦٤ . مطبعة المدنى ، الطبعة الثانية ١٩٦١ م .

(٢) انظر : عباس العقاد ناقدا ، عبد الحى دياب . الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م.

ونختم هذا المبحث بجزء من مقال للأستاذ / مصطفى صادق الرافعى تحت عنوان : (نقد الشعر وفلسفته) يقول فيه :

" فأما الكلام فى فن الشعر ، فالمراد بالشعر – أى نظم الكلام – وهو فى رأينا التأثير فى النفس لا غير ، والفن كله إنما هو هذا التأثير ، والاحتيال على رجة النفس له ، واهتزازها بألفاظ الشعر ووزنه ، وإدارة معانيه ، وطريقة تأديتها إلى النفس ، وتأليف مادة الشعور من كل ذلك تأليفا متلائما مستويا فى نسجه ، لا يقع فيه تفاوت ولا اختلال ، ولا يحمل عليه تعسف ولا استكراه ، فيأتى الشعر من دقته وتركيبه الحى ، ونسقه الطبيعى ، كأنما يقرع على القلب الإنسانى ليفتح لمعانيه إلى الروح .

والشعر العربى إذا تمت له صناعته ، ووسائل التأثير ، وأحكم من كل جهاته ، كان أسمى شعر غنائى ، فتراه يطرد بألفاظه الجميلة السائغة ، وكأنه لا يحمل فيها معانى بل يحمل حركات عصبية ، ليس بينها وبين أن تنساب فى الدم حائل ، فما يكون إلا أن يغمرك بالطرب ، ويهزك من أعماق النفس ، ويورد عليك من نغمة الروح ما إن تدبرته فى نفسك ، وأفصحت عنه شعورك رأيته فى حقيقته وجها من نسيان الحياة الأرضية ، والانتقال إلى حياة أخرى من السرور والاهتياج والألم ، والشجو ، يحياها الدم الثائر وحده غير مشارك فيها إلا من القلب .. (١) .

---

(١) الرافعى ، وحى القلم : الجزء الثالث .

المقالة الأدبية النقدية

(فى الجزيرة العربية)

الأديب الابتداعى (العواد)

محمد حسن عواد من الرعيل الأول السباقين إلى نظم الشعر، كما أنه يعد من طلائع المجددين فى ميدان الأدب بالحجاز . وقد ولد بمدينة جدة سنة ١٣٢٠ هـ / ١٩٢٠م وبها نشأ ودرس ، ثم ألحقه والده بمدرسة الفلاح تلك التى هيأت للبلاد خيرة الرجال والمثقفين ، وخريجو هذه المدرسة هم العلماء الذين اعتمدت عليهم المملكة العربية السعودية فى نهضتها ، وهم الرعيل الأول الذى حمل على عاتقه عبء النهضة الفكرية والأدبية وأذاعها فى طول البلاد وعرضها (١).

وحين تخرج العواد من مدرسة الفلاح اشتغل بالتدريس ، ثم التحق ببعض الأعمال الحكومية ، كما أسهم فى تحرير بعض الصحف ، ورأس تحرير جريدة " صوت الحجاز " ثم عمل بعد ذلك فى بعض الأعمال الحرة ، وعين فى آخر حياته مديرا لنادى جدة الأدبى ، وتوفى سنة ١٤٠١ هـ .

يعد الأديب محمد حسن عواد من الذين خدموا الفكر فى المملكة العربية السعودية ، وله إسهامات جيدة فى ميدان الشعر والنثر ، وله فى هذا وذاك مؤلفات متعددة ،ومن دواوينه الشعرية :

---

(١) راجع : " مجلة المنهل " ، ــ عدد الأدباء .

١ – آماس وأطلاس . ٢ – البراعم أو بقايا الآماس .

٣ – رؤى " أبولون " . ٤ – الساحر العظيم .

٥ – فى الأفق الملتهب . ٦ – نحو كيان جديد .

كما أن له مؤلفات نثرية متعددة ضمت فى مجموعات ، وله مؤلفات أخرى لم تحوها مجموعاته النثرية : " تأملات فى الأدب والحياة " و " خواطر مصرحة " و " سليمان بن عبد الملك " و " محرر العبيد " و " من وحى الحياة العامة " و " موسيقى الشعر الخارجية " .

يضاف إلى ذلك أنه مثل بلاده فى عدد من المؤتمرات الأدبية فى العالم العربى ، وقام بإذاعة أحاديث ثقافية وأدبية فى الإذاعة السعودية ، وقد صدرت هذه الأحاديث مع مقالات أخرى فى كتب مستقلة هى على الترتيب : " نحو كيان جديد " و " تأملات فى الأدب والحياة " و " من وحى الحياة العامة " .

نتاجه الأدبى :

يعد العواد الأديب الابتداعى الأول من بين شعراء الحجاز المعاصرين ، وهو من الشعراء الموهوبين المحسنين على الرغم من إكثاره ، وهو يماثل الصبان أبا النهضة الأدبية الحجازية فى رصانة الديباجة وتميز الشخصية ، وقد نفث بأفكاره فى أشعاره ، وبث فيها

روح الشباب والقوة ، ودفع بآرائه الجريئة مجموعة من الشباب على اقتحام ميدان الشعر والتفوق فيه (١) .

وهو فى مقدمة شعراء الحجاز ، كما أنه من عمد المدرسة الحديثة فى الشعر الحجازى ، ويعد هو والشاعر / حمزة شحاته كفرسى رهان فى ميدان النتاج الشعرى الجيد ، ولهما من الشهرة ما لهما ، ولهما فى الشعر أستاذية على كثير من الأدباء والشعراء ، وكل منهما صاحب مدرسة فى التجديد الشعرى والأدبى ، وشعره يتسم بالرصانة والجزالة ، وتميز الشخصية ، كما أنه ذو ألوان ومعظمه رومانتيكى .

وللعواد قصائد فى غاية الجودة والإبداع والأصالة والموهبة ، فهو شاعر بطبعه وفطرته ، ومع ذلك فلا يسلم شعره من النقد ، شأنه فى ذلك شأن الشعراء الفحول . ورسالة الشعر عنده إنما هى إنماء ثروة الحياة فى النفوس ، وشرح حقيقة الجمال ، والصعود بالإنسانية وبالفكر الإنسانى إلى أفق سام من آفاق الخلود ، ومقياس الشعر الصحيح أو الشعر الصادق عنده هو أن يغمر نفسك بالإعجاب ، ويحفزها إلى إفاضة الثناء على الشاعر حين تقرؤه (٢) .

ويشرح العواد طريقته الفنية ، ومذهبه فى الأدب والفن والشعر وذلك فى أبيات قصيدته الطويلة " الساحر العظيم أو يد الفن

(١) راجع : المرصاد ، للفلالى : ٢ / ٥٨ .

(٢) تأملات فى الأدب والحياة ، للعواد ، ص ٢٠ ، مطبعة العالم العربى ، القاهرة . وراجع أيضا ديوانه :" آماس وأطلاس " ص ٧ .

تحطم الأصنام " .. ومما هو معروف أن الشاعر قد نقد بهذه القصيدة الأدباء ، وفى نفس الوقت جعلها شرحا لرسالته فى وسط الأدباء والشعراء الحجازيين .

إنه يقول :

" إن الشاعر الصادق يتزود بزاد الشاعرية وهو الخيال الحى الذى يجنح الشعور النفسى والتفكير الفنى بأجنحة تسمو به إلى الأولمب وقتما يشاء ، ولكنها لا تقطع الصلة بينه وبين كوكب الأرض متى كان من القدرة الشاعرة بحيث يستطيع ضبط الموازنة فى التجوال بين العالمين [١] .

ولغة شعر العواد حسنة فى جملتها ، وقد تخلص فيها من الضعف ومن تكلف المحسنات البديعية . ومع أنع لم يتح للعامية أن تجد طريقا رحبا إلى لغة شعره ، إلا أنه لم يستطع أن يرتفع بها كلية إلى مستوى من الجزالة كتلك التى نحسها فى شعر الشاعر / حمزه شحاته .

أما أسلوبه فإنه يتراوح بين القوة والضعف . ومع أنه دعا إلى هجر شعر المناسبات ، ودعا إلى الوحدة العضوية ، كما دعا إلى أن يتفاعل الشاعر مع مجتمعه ، لكننا نجده ينظم كثيرا فى شعر المناسبات ، وتأتى قصائد له ليس بين أبياتها تماسك يحقق لها ما

---

(١) آماس وأطلاس ص ٦ .

دعا إليه وهو الوحدة العضوية ، وخرجت قصائده هذه لا تختلف عن البناء التقليدى للقصيدة العربية .

وقد نظم العواد فى أغراض الشعر المألوفة فى عصره والشائعة عند شعراء زمانه ، فنظم فى الوصف ، والمدح ، والفخر ، والرثاء ، والغزل ، وما إلى ذلك . وله فى نفس الوقت قصائد تطرق فيها إلى نقد النظم الاجتماعية ، ومحاولة الإصلاح الاجتماعى والسياسى ، والدعوة إلى خلق مجتمع متطور يقف جنبا إلى جنب مع البلدان الراقية المتقدمة ، كما عبر عن تضامنه مع كفاح البلاد العربية ، وناصر قضايا الشعوب المستضعفة ، ودعا إلى السلام ، وهتف للحرية .

والواقع أن العواد مثلما كان شاعرا كان ناثرا ، بل إننا يمكننا أن نقول إنه يكاد يكون أول من أنشأ المقالة الأدبية فى الأدب السعودى الحديث ، وأول من كتب كذلك المقالة النقدية ، وقد أهاب بزملائه من الادباء : " أن يلقوا عنهم أردية الكسل وحب التقليد ، ويندفعوا إلى التجديد ، فهو غاية العصر المتحرر ، ومطلب الوطن والأخلاق " (١) .

يقول فى مقالة له : " إعجابى بالكتبة العصريين ، أو الكرام الكاتبين يكاد يكون منحصرا فى أمثال ولى الدين يكن ،

---

(١) خواطر مصرحة ، للعواد ، ص ٥١ .

والمنفلوطى ، وأمين الريحانى ، والعقاد ، والآنسة مـــى ، وســـلامة موسى ، وهيكل ، والمازنى من الكتبة الأحرار ... " (١) .

ويقول النقاد عنه : إن عيب العواد أنه يعتز بكل ما يقولـــه ، قويا كان أم ضعيفا . ومن ثم غاب عنه أن التجديد لا يكون بـــالكلام الذى يملأ الجرائد والمجلات ، ولكنه يكون باستيعاب أكبر قدر مـــن المعارف وخلاصات الفكر الإنسانى ، وغاب عنه أيضا أن التجديـــد ليس بهدم كل ما هو قديم ليبقى أطلالا ، ولكنه ببناء الأصلح والملائم للعصر وذوق العصر .

على أن العواد كان يستخدم أسلوبا يتسم بالهجوم ، فقد هـــاجم الأدباء ، كما هاجم العلماء ، ولم يفلت العامة من هجماته العنيفـــة ، وربما أن الذى جره إلى ذلك أنه أراد أن يكون صورة مثلـــى فلـــم يوفق فى أسلوبه من جانب ، كما لم يوفق فى تنكره لكل ما هو قديم من جانب آخر .

وأيا ما كان الأمر فقد أسهم العواد فـــــى بعـــض الميـــادين العلمية ، كما أسهم فى ميدان القصة ، ونحن نراه ـــ وبخاصة بعـــد أن تقدمت سنه ـــ يستخدم الأسلوب الفكه الساخر ، وقد عـــدل عـــن ذلك أحيانا فجاء بألوان كتابية تتسم بالجـــد البعيـــد عـــــن الهـــزل والضحك ، وأخذ يراعى مقتضى الحال ، والبلاغة التى تضع كـــل شئ فى مكانه المناسب .

---

(١) راجع المقال فى " خواطر مصرحة " للعواد ص ٦٤ .

التجديد عنده:

يعد العواد من طلائع المجددين فى ميدان الأدب بالحجاز ، وليس من شك فى أن عمله فى رقابة الكتب الواردة قد أتاح له فرصة الاطلاع على الكتب القديمة والحديثة ، وإن كان تأثره بكتب المتأخرين من عرب وغربيين أكثر ، الأمر الذى جعله يعجب بالثقافة الغربية ويأخذ يدعو إليها بشكل أو بآخر .

وقد أحس العواد أن ما أثر عن العرب من شعر فى القديم والحديث ليس على الدرجة المرجوة ، وهو إلى حد ما يفتقر إلى البلاغة ، وإنما الشعر فى نظره هو ذلك الذى ينظمه الغربيون ونصارى الشام من المهجريين ، ومن ثم راح يدعو بحماس مفرط إلى تخليص الشعر مما سماه بالقيود الثقيلة كالوزن والقافية . ودعا إلى هجر شعر المناسبات ، كما دعا إلى الوحدة العضوية فى القصيدة العربية ، وأشار إلى أهمية تفاعل الشاعر مع مجتمعه عن طريق الدعوة إلى تجديد أوضاعه فى النظم والعادات والتقاليد ، ويكون كذلك فى رأيه باتباع عادات وتقاليد ونظم الشعوب المتحضرة الراقية .

ومن تلامذة العواد فى الدعوة إلى التجديد ، ومريديه الداعين إلى مبادئه الفكرية والأدبية : أحمد محمد جمال ، وأمين يحيى ، وعبد العزيز ساب ، وعبد العزيز عطية ، وعبد السلام الساسى ، وعبد الفتاح أبو مدين ، ومحمد سعيد باعشن صاحب صحيفة

" أضواء " التى ظهرت فى ذى القعدة عام ١٣٧٦ هـ ـ يونيو ١٩٥٧ م ، وعبد العزيز الرفاعى ، ومحمود عارف وغيرهم .

وفى رأيى أن العواد حين حاول أن يغشى ميادين المذاهب الجديدة كان قد اتخذ من منهج مدرسة الديوان ـ وعلى وجه الخصوص عباس محمود العقاد ـ قدوة له فى بعض آرائه التى طلع بها ، كما لا نغفل أنه قد تأثر أيما تأثر بشعراء المهجر ـ وخاصة شعراء المهجر الشمالى ـ ولا يخفى أنه قد جارى هؤلاء المهجريين فى تأييد الشعر الحر والمنثور ، وإن كان قد خالف العقاد فى ذلك .

وقد أخذ العواد يفسح المجال للتيارات الجديدة ، ومحاولة خلق التيار الرومانسى وفرضه على الأدب فرضا ، فهاجم من ثم الاتجاه الكلاسيكى سنة ١٩٢٦ م بمقال له عنوانه " الأدب فى الحجاز [١] ، وأخذ يتزعم الاتجاه الابتداعى فى الأدب ، وإن كان يأبى أن يجرد الوجدانية من التأمل والتفكير [٢] حتى صار من أشهر شعراء الرومانسية فى المملكة العربية السعودية .

__فى ميزان النقد :__

الحقيقة أن العواد وإن كان قد اتخذ من نهج المذاهب الجديدة ـ وبخاصة الرومانسية ـ قدوة له ، ونظم فى ذلك شعرا

---

(١) راجع المقال فى " خواطر مصرحة " ص ٥٠ .

(٢) راجع : شعراء الحجاز المعاصرون ، عبد السلام الساسى ص ٢١ . دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٣٧٠ هـ .

كثيرا ، فإن إجادته تتجلى أكثر عندما يقتدى بالمــذهب الكلاســيكى الجديد .

ونحن مع ذلك كله حين ننظر فى دواوين العواد لنتبين مــدى قدرته على تطبيق ما دعا إليه ونهض به ، فإننا نجد أنه لــم يــتمكن من تطبيق ذلك كله فى شعره ، كل ما فى الأمر أنــه أتــى بــبعض القصائد التى تخلومن الوزن والقافية ، وخرجت معظــم قصــائده لا تتحقق فيه ما دعا إليه من الوحدة العضوية ، وجاءت لا تختلف عن البناء التقليدى للقصيدة العربية .

إن ما غفل عنه العواد أنه لم يهذب شعره ، فله قصيدة بعنوان " نشيد عسكرى " (١) ، وهذه القصيدة تخلو كلية من مقومات النشــيد مــن القوة والغنائية ، وقــد نقد الفلالى بعض قصائده مثــل " أنــا والليل " (٢) ، ونقد كذلك قصيدته " نجاة " تلك التى يحيى فيها ابنتــه فى ليلة ميلادها ولنقف مثلا عند هذه الأبيات من قصــيدته " تحيــة العام الجديد " يقول :

أيها المشرق فــى رأس الهرم ... أيها الناظر مــن خلف السدم
أيها المحجوب فى الغيب الأصم ... هــذه الدنيــا هبوط وصعود
حى يا عام الورى فــردا فــردا ... فالتحيات لأهل الرضى أجدى
حيهم يا عام ما عــن ذاك معدى ...لا تذر من سيد أو من مسود

---

(١) فى ديوانه " نحو كيان جديد " .
(٢) المرصاد : ٢ / ٦٠ ـــ ٦٥ .

.... فأنت لو قرأت هذه الأبيات إلى آخر القصيدة لوجدت فيها غنائية ضعيفة ، كما أنك لا بد وأن تجد فيها روح الشاعر الثائر الذى يتطلع إلى التجديد .. هذا فضلا عما فيها من عامية ، وضعف ، وابتذال . وما رأيك فى قوله : " فردا فردا " وقوله : " ما عن ذاك معدى " !

وأيا ما كان الأمر فإن ريادة الشاعر محمد حسن عواد فى ميدان الأدب المجرد أمر مسلم به ، رغم كل ما قيل فى شعره . وهو شاعر ذو صبغة ذهنية عميقة ، ولو كان للعواد غنائية الشعراء المبرزين فى الغنائية كإبراهيم ناجى ، وعلى محمود طه ، لكان قد كتب لشعره أن يكون على ألسنة الجماهير عامة .

إن اعتداد العواد بشخصيته ، وإحساسه المفرط بوعيه الشعرى ، ونرجسيته ، كل ذلك جعله يعتد بنفسه ، ويتمثل أسباب العزة والمنعة ، بل ويندفع اندفاعا شديدا فى مقالاته النقدية ، لدرجة جعلته يسف فى بعض ألوان النقد الشخصى .

يقول فى مقالة نقدية يعبر عن مبادئه الكبرى التى ينهجها ، ومن أبرزها الواقعية فى الادب ، والأدب من أجل الحياة :

" .. وهكذا ولد هذا الكتاب ، ومشى ونادى ، وانطلق العملاق من مكمنه ، انطلق الفكر الواقعى ، فأشاع سقوط الاتباعية والتقليد ، والارتزاق بالأدب الذليل ، والزلفى بالميوعة والاستحذاء ، وصدع

برسالة الفن ، وبروح النقد ، وسما بالقيم ، وأيقظ الوعى الاجتماعى العام " (١) .

... هكذا كان العواد . ونحن لو عمدنا إلى موازنة يسيرة بين وبين زملائه من الأدباء الذين عاصروه من خلال مقالاته المختلفة لتبين لنا كيف كان يفكر ، وكيف كان يكتب ، ثم كيف كان ينحو فى التجديد نحوا خاصا به غير متشابه .

إنه لا يتفق مع أولئك التقليديين الذين يعملون أذهانهم فى سبيل تزيين الأسلوب ، والإيقاع المفتعل ، ومن هنا كان تحامله فى نقده الأدبى والاجتماعى (٢) .

---

(١) مقدمة العواد للمجموعة الكاملة : ١ / ١٠ . وقد كتب هذه المقدمة عام ١٣٨٠ هـ .
(نقلا عن : المقالة فى الأدب السعودى ، د / محمد العوين : ١ / ١٢٦) .

(٢) انظر : الأدب الحديث تاريخ ودراسات ، د / محمد بن سعد بن حسين ، ص ٣٦٩ . مطابع الفرزدق ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٩٨٤ م .

المقالة الأدبية الوصفية

تعريفها:

وهذه المقالة من النثر الأدبى الجميل ، ونعنى بها ذلك اللون المقالى الذى يعمد فيه الكاتب إلى تصوير ما يقع تحت حسه فى الحياة ، ويأخذ يلاحق ذلك كله بالوصف كى ينقل أثره فى نفسه .

وهذا هو التعريف العام للمقالة الوصفية ، وهو تعريف يبتعد بها عن أن تكون مقصورة على وصف الطبيعة ، ومظاهر الكون ، ومعالم الحياة .

على حين يذهب كثير من النقاد إلى تمييزها بغرض واحد أو غرضين اثنين ، بحيث لا يمنح كاتبها الحرية المطلقة فى وصف ما يريد ، بل يتناول مشهدا من مشاهد الحياة ، أو مجالا من مجالاتها ، فيصفه ويصوره لمن لم يره قبل .

والقيمة الحقيقية للمقالة الوصفية تقوم على " دقة الملاحظة ، وعلى التعاطف العميق مع الطبيعة .. ثم على الوصف الرشيق المعبر الذى ينقل أحاسيس الكاتب وصورة الطبيعة كما تنعكس على مرآة نفسه بصدق وإخلاص ".[١] .

---

(١) فن المقالة ، د / محمد يوسف نجم ، بتصرف ص ١١٤

وفى محاولة لتقسيم المقالة الوصفية [1] حاول بعض الدارسين حصر أغراض هذه المقالة لكى يقسموها حسب هـذه الأغـراض ، وفاتهم أن من الصعب بل من المستحيل فعـل ذلـك ، لأن فصل الأنواع الأدبية فصلا كاملا أمر يستحيل فـى علـم النقـد الأدبـى الرصين ، ذلك لأن الفنون متداخلة ومتصلة فى سياق الفن الواحد .

وهذه هى موضوعات المقالة الوصفية :

ـ وصف الطبيعة ، من أودية ، وهضاب ، وجبال ، ومتنزهـات ، وأحياء ، وغير ذلك من المشاهد .

ـ وصف الرحلة .

ـ وصف الذات .

ـ وصف الغير .

ـ وصف الصور المعنوية .

والحقيقة أن طبيعة المقالة الوصفية لا تصلح للأفكار العلمية ولا للأداء الموضوعى الصرف ، فطبيعة هذه المقالة بموضـوعاتها المذكورة قبل تتطلب استعدادا فنيا ، وتجربة صادقة عاشها الكاتـب وتأثر بها وجدانه .

وممن برع فى هذا اللون المقالى فى الأدب المعاصر : أحمد أمين ، والعقاد ، والمازنى ، وميخائيل نعيمة ، وجبران خليل جبران

---

[1] انظر : المقالـة فى أدب العقاد ، د / عبد القادر رزق الطويل ، ص ٧٩ وما بعدها .

، وإيليا أبو ماضى ، والرافعى ، وأمين الريحانى ، والمنفلوطى ، وأحمد حسن الزيات ، ويحيى حقى ، وغيرهم .

فمن ينظر المقالات الوصفية لهؤلاء يجدها فى مجموعها مرآة تصف الحياة والطبيعة والأشياء كما رأوها . فمقالات المازنى الوصفية مثلا ترينا الحياة المصرية بمزاياها وعيوبها ، وتقاليدها ، وعاداتها ، وأوهامها وخيالاتها ، وأمثالها ، وألفاظها التقليدية ، وفكاهتها ، وتفاؤلها ، وتشاؤمها ، ومخاوفها ، وأمانيها .. الحياة المصرية بكل ما فيها منذ أواخر القرن الماضى إلى الحلقات الأولى من القرن العشرين (١) .

يقول يصف خريف العمر (٢) :

" متى جاء الخريف ، وبدأ المرء يشعر بأنه قد رأى خير ما كتب له فى عمره ، وأن ما تبقى من رحلته فى هذه الدنيا أشبه بأن يكون وجودا منه بأن يكون حياة استمرار ، ومجرد اندفاع فى الطريق الذى كانت تجرى فيه الحياة الأولى كما يجرى النازل من التـرام خطوات إلى جانبه ..

عرف المرء أن أذنه التى كانت تثملها همسة الحب الخافتة لن تسمع بعد ذلك تلك اللغة العذبة ، وصار القلب الذى كان يطفر إذا

---

(١) أدب المازنى ، د / نعمات أحمد فؤاد ، ص ١٢٩ . نشر مكتبة الخنجى ، مصر .
(٢) الثقافة ، العدد ٦٠٤ ص ١٧ .

هتف بالنفس هاتف من أمل ، أو طماح يخفق بلا احتفال ، ولا يخرج من دقه عن الانتظام .

وبدأت الآمال والرغائب التى كنا نعتز بها ونحرص عليها تفقد حلاوتها ، وقوتها ، ونضارتها ، وتتعرى شجراتها من أوراقها وتجف وتصفر ، وتتساقط على اليد ، ويطير النسيم هنا وهنا " .

ومن يقرأ المقال يلاحظ أن الخريف عند الإنسان كالخريف فى الطبيعة ، تتعرى فيه الأشجار من أوراقها ، وتأفل فيه الشمس عن سمائها ، فإذا التمستها فإنها لا تلبث أن تختفى من جديد ، وتلوذ الطيور بأوكارها فلا خروج ولا غناء ، وهكذا تحتشم الطبيعة فى تصرفاتها كما يتئد الإنسان فى خريف العمر .

ومن نماذج المقالة الوصفية ما قاله العقاد تحت عنوان : (جمال الطبيعة) [١] :

" وللطبيعة سر مقترن بسر الحياة لست أتعرض له ، وفيها جانب يتصل بإحساسنا ووعينا هو الذى أبحث فيه هنا ، ولست مستهديا فى البحث بالعلم الطبيعى وحده ، ولا بخيال الشاعر وحده ، ولكنى أمزج بينهما ، إذ لا غنى عن تدقيق العلم ، وعن سليقة الشاعر معالم يود البحث فى أمر ينظم طرفاه بين عناصر الطبيعة وسرائر النفس الإنسانية " .

---

(١) انظر المقال فى : المؤيد ، بتاريخ ١٨ / ٥ / ١٩١٤ م .

ومن نماذجها كذلك ما كتبه الرافعي في كتابه (وحي القلم) تحت عنوان : (موت أم) يصف فيها موت زوج صديقه الأستاذ / حسنين مخلوف ، يقول [١] :

" رجعت من الجنازة بعد أن غبرت قدمي ساعة في الطريق التي ترابها تراب وأشعة ، وكانت في النعش لؤلؤة آدمية محطمة ، هي زوج صديق طحطحتها الأمراض ، ففرقتها بين علل الموت . وكان قلبها يحييها ، فأخذ يهلكها ، حتى إذا دنا أن يقضي عليها ، رحمها الله فقضى فيها قضاءه ، ومَنْ ذا الذي مات له مريض بالقلب ولم يره من قلبه في علة كالعصفورة التي تهتلك تحت عيني ثعبان سلط عليها سموم عينيه .

كانت المسكينة في الخامسة والعشرين من سنها ، أما في قلبها ففي الثمانين أو فوق ذلك ، هي في سن الشباب ، وهو متهدم في سن الموت .

وكانت فاضلة تقية صالحة ، لم تتعلم ولكن علمتها التقوى الفضيلة ، وأكمل النساء عندي ليست هي التي ملأت عينيها من الكتب ، فهي تنظر إلى الحياة نظرات تحل مشاكل وتخلق مشاكل ، ولكنها تلك التي تنظر إلى الدنيا بعين متلألئة بنور الإيمان ، تقرأ في كل شيء معناه السماوي ، فتؤمن بأحزانها وأفراحها معا ، وما تعطى من يد خالقها رحمة معروفة أو رحمة مجهولة ، وهذه عندي

---

(١) وحي القلم : ٢ / ١٦٢ ، ١٦٣ . مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، الطبعة السادسة .

امرأة ... وتكون الزوجة ، ومعناها القوة المسعدة ، وتصير الأم ومعناها التكملة الإلهية لصغارها وزوجها ونفسها " .

خصائص المقالة الأدبية الوصفية :

إن المقالة الوصفية تتطلب من كاتبها أن ينظر إلى مشاهداته على أنها رحلة حية ، أو تجربة إنسانية يتعرف فيها على أسرار الحياة ، ويستكنه فيها دقائقها وخفاياها ، ويلجأ إلى معالم الكون والطبيعة باثا شكواه ، ومعبرا عن ذاته ، وهذا بعينه هو الرومانسية الحالمة .

ومن أهم خصائص المقالة الوصفية ما يلي :

١ – رسم لوحة ناطقة بالمشهد الموصوف وما يحيط به من بواعث .

٢ – استقصاء الصفات التى تحيط بالمشهد واستيفاؤها .

٣ – تجلية الصور بالبعد عن الحقيقة والجنوح إلى التأثير بالصور البيانية .

٤ – الاستعانة بالمحسنات البديعية التى تأتى عفوا .

٥ – العمق فى التفكير .

٦ – الرقة فى الإحساس .

٧ – العاطفيةغير المسرفة .

وبالموازنة بين أنواع المقالات السابقة وربط ذلك كله بميول الكاتب واتجاهاته الأدبية ، يمكن أن نلاحظ مايأتى :

أولا : من حيث الموضوعات :

- موضوعات الكتاب الرومانسيين هى الهروب إلى الطبيعة غالبا ، بينما موضوعات الكتاب الواقعيين تتجه إلى الواقع .

- إذا كان الكتاب الرومانسيون يستعينون بالرمز فى كتاباتهم ، فـإن الوضوح هو السمة الغالبة عند الكتاب الواقعيين .

- بالغ الرومانسيون فى الحديث عن النفس ، وأحسوا بالوحدة فـى كل أحوالها ، على حين التصق الواقعيون بالمجتمع ، وعبروا عـن إحساسه الجماعى .

ثانيا : من حيث الأساليب :

- يتميز الكتاب الرومانسيون فى أساليبهم بالإغراق فى العاطفـة ، بينما اعتد الكتاب الواقعيون بالعقل ، وغلبوه على جانب العاطفة .

- احتفل المقاليون الذاتيون بالشكل الفنى ، بينما مال الواقعيون إلـى واقعية التعبير .

- لا يميل الكتاب الذاتيون إلى المباشرة ، بينما الفكرة عند الكتـاب الواقعيين هى الأساس ، فمبلغ التوفيق لديهم أن تصل إلى المتلقى فى سهولة ويسر .

أنواع أخرى

ونود ها هنا أن نستعرض عددا من المقالات المختلفـة عـن الألوان التى سبق أن ذكرناها ، لعل فى ذلك استكمالا للصورة التـى

نود رسمها أمام القارئ ، وهذا يقضى بنا إلى إيـــراد بقيـــة ألـــوان المقالات التى صال وجال فيها الكتاب .

ومن هذه المقالات :

(١) المقالة السياسية :

وقد ظهرت هذه المقالة فى الربع الأخير من القـــرن التاســـع عشر الميلادى ، وهى الفترة التى كانت تؤلف فـــى تـــاريخ الـــدول العربية بداية لمرحلة طويلة يصح لنا أن نصفها بمرحلة اليقظة ، أو مرحلة اليأس على السواء :

مرحلة اليقظة لأنها كانت بداية الطريق فى تقـــويض دعـــائم الاستعمار ، والإتيان عليه من أساسه ، وقد تحقق ذلك بفضـــل نفـــر من الوطنيين تحولت الكتابة على أيديهم إلى أسلحة ذات أثر فعـــال ، فأخذوا يكتبون مقالات طليقة كانت فيما نرى نقطة انطلاق فى تغيير المفاهيم السياسية ومولد الشعور بالقومية العربية .

والكتاب فى هذا اللون من المقال يعبرون عن شعور الشـــعب بالاستياء من المحتل الأجنبى ، ولذلك أحست الأمة بكرامتها وكيانها واستشعرت بسبب هذه المقالات الثقة فى نفسها ، وأخذت تتطلع إلى عهد جديد تتخلص فيه من سيطرة الأوربيين ونفوذهم ، وتسترد فيـــه حقوقها الضائعة .

وتتميز هذه المقالة بجدتها ، وقصر عباراتهـــا ، ومواكبتهـــا للحياة بما يصطرع فيها من تيارات مضطربة ، كما تتميز بأســـلوبها الخالى من التكلف المعتمد على الوضوح والدقة والإمتاع .

ويمثل هذا النوع : جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم ، ومصطفى كامل ، وسعد زغلول ، والمازنى ، وغيرهم ، فكان لهم جميعا فضل بين فى بروز المقالة السياسية وازدهارها ، وشغلها لأكثر صفحات الصحف فى عهدهم .

يقول عبد الله النديم فيما أسماه (وصية وطنية) [١] :

" أى بنى مصر . ما أصدق الأحلام عند أهل السرائر الطاهرة ، وما أحسن التعبير عنها من الخبير بها ، وقد كنا فى نومة خيم الظلم فيها على قلوبنا وعلى أسماعنا ، وألبس الاستبداد بصائرنا غشاوة لا نبصر معها حقيقة ولا نعرف حقا .

وكانت أرواحنا فى كهف الخوف تسرح فى ظلمة لا نور فيها وتجول فى مضيق لا باب له ، فكان يحدث عنا من يمر بنا حديثه عن الأموات ويقول لسائله : هم العمد المتحركة بإرادة مالكها ، تراهم ينطقون ولكن بلسان العبودية ، ويمشون ولكن فى طريق الاستبداد ، ويخضعون ولكن لسيف الإذلال ، تظنهم أحرارا وهم عبيد ، وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ، يجتمع اللفيف منهم بالإشارة ، ويتفرق الجيش بالإيماء ، إن طلبوا حقا ظلموا ، وإن دافعوا عن مال أبعدوا ، وإن اشتكوا حاكما سجنوا ، يكسبون الكثير من النقد وهم

---

(١) المذكرات الوطنية : ص ١١٥ وما عبدها ، عن كتاب : النديم الأديب ، د / محمد السعدى فرهود ، ص ٧٢ وما بعدها .

فقراء ، ويصنعون الثياب وهم حفاة عراة ، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا حياة ولا نشورا ... " .

فالنديم يتحدث عن المصريين في وصيته حديثا سياسيا ، وأوضح ما كانوا فيه من ذل ومهانة ، واستسلام وقنوط ، وحرمان ويأس ، وما إلى ذلك من واقع أليم .

خصائص المقالة السياسية :

- تتميز المقالة السياسية بقصر عباراتها وارتفاع صوتها .
- تعتمد على الأسلوب السهل الخالي من التعقيد ،
- المزاوجة بين العاطفة المتأججة والعقل الهادئ المتزن.
- تتوج المقالة السياسية ببلاغة العبارة ، وقوة الألفاظ ، وحسن الجرس .
- تعكس الوطنية الصادقة التي لدى الكتاب .
- المقالة السياسية وثيقة الصلة بأدب الوجدان .
- لها أثر بالغ في إيقاظ الروح الوطنية .
- أسلوبها مثال الوضوح الناشئ عن دقة الكلمات ، وسهولة التراكيب ، وتواصل الفقرات .
- المقالة السياسية هي من أزهى ألوان المقالة الصحفية وأشدها خطرا .
- العنف واللهجة الحماسية ، وقد تمثل هذا بصفة خاصة عند العقاد حتى في كل أغراض الفن المقالي عنده ، فهو كما يقول الدكتور / محمد يوسف نجم : " العقاد كاتب متجهم القلم

ذو طبيعة حديـــة ، يكتب كمن يحمل أعبـــاء التاريخ علـــى كاهله .. [١] " .

- كثيرا ما تعتمد على الطـــرق والدراســـة القانونيـــة كوســـيلة للمنطقية وترتيب المعانى ، كما كان الحال عنـــد الكاتـــب / محمد حسين هيكل [٢] .

(٢) المقالة الدينية :

لعل المقالة الدينية هى التى احتلت مقام السيادة بـــين ســـائر ألوان المقالات ، لسبب جوهرى وهو أن الدين الإسلامى هو العقيدة الرسمية للبلاد العربية ، والعاطفة الدينية هى التى أمدت الكتاب بذلك الفيض الزاخر من المقالات . وهذه العاطفة لها من القوة فى عصرنا الحاضر ما لها ، لدرجة أن المفكرين لم يستطيعوا فى البداية إحداث تأثير سياسى فى الناس إلا عن طريقها .

والمقالة الدينية هى الموضوع الرئيس فى كل الطوار ، ولها الصدارة فى كل الصحف والمجلات ، وهذا يحمل الكتاب مســـئولية عظيمة تجاه الدين الإسلامى من جهة وتجاه العالم الإسلامى من جهة أخرى .

---

(١) فن المقالة : ص ٨٥ .

(٢) انظر : محمد حســـين هيـــكل الأديب السياسى المؤرخ ورائد الكتابة فى السيرة الذاتية د . محمد رجب البيومى ، ص ٤٥ ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـــ ٢٠٠١م .

ونحن إذا ما استعرضنا هذا الفيض الزاخر من المقالات الدينية فى عصرنا الحديث وجدناها تدور حول العقيدة وشرحها ، وتدور كذلك حول بيان مزايا الدين الإسلامى ، وتمجيد البطولات الإسلامية . هذا بالإضافة إلى مشاركتها الإيجابية فى علاج المجتمع ، وكان هذا دون شك بفضل ما كتبه الشيخان : جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، وما بذلاه من جهد فى نشر الوعى الإسلامى ، وإظهار حقائق الإسلام بمظهر جديد ، وقد آمن الرجلان بهذه المهمة إيمانهما بالله سبحانه وتعالى ، حتى لقيا فى سبيل ذلك ما لقيا من سجن ونفى وتشريد [١] .

ويهتم صاحب المقال الدينى بإبراز العاطفة الدينية نحو أمر يتصل بالعقيدة أو يمس قضايا المجتمع ، فتكون هذه المقالة بمثابة إعلان عن رأى الكاتب فى الاعتقاد ، أو العبادات ، أو المعاملات ، أو الآداب العامة ، أوما إلى ذلك .

هذا وينبغى أن نشير إلى أن الملامح الأدبية تختلف فى المقالة الدينية باختلاف الكاتب ، من حيث إيثاره للأسلوب الأدبى الرقيق ، أو خلوه من صبغات الكتابة الفنية ، وإخلاصه للفكرة دون سواها .

ولقد نمت هذه المقالة فى مصر وازدهرت حين صدرت بعض المجلات الدينية المتخصصة مثل : (نور الإسلام) و (مجلة

---

(١) انظر : العامل الدينى فى الشعر المصرى الحديث ، د / سعد الدين الجيزاوى ص ٢٥٧ . المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، القاهرة .

الأزهر) و (الهدى النبوى) وأمثالها . غير أننا نجد المقالة الإسلامية منبثة فى جميع الصحف والمجلات ، يعالج بها أربابها قضايا المسلمين والإسلام ، ويذودون بها عن الرموز الإسلامية ، ويقفون بها فى وجه أعداء الإسلام ، يصدون ضلالهم ، ويردون باطلهم .

ومن كتاب المقالة الدينية : جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، ومصطفى صادق الرافعى ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وأحمد أمين ، وملك حفنى ناصف ، والعقاد ، وسيد قطب ، وغيرهم .

ومن الأمثلة على حسن العاطفة الدينية وجمالها ، مع رشاقة اللفظة وخفتها مع ميلها إلى الطابع الدينى ما كتبه الأستاذ / مصطفى صادق الرافعى عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم [١] .

يقول [٢] :

" كان المعنى الآدمى فى هذه الإنسانية كأنما وهن من طول الدهر عليه ، يتحيفه ويمحوه ، ويتعاوره بالشر والمنكر ، فابتعث الله تاريخ العقل بآدم جديد ، بدأت به الدنيا فى تطورها الأعلى من حيث يرتفع الإنسان على ذاته ، كما بدأت من حيث يوجد الإنسان فى ذاته ،

---

(١) انظر : مصطفى صادق الرافعى فارس القلم تحت راية القرآن ، د / محمد رجب البيومى ص ٥٧ وما بعدها . دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٧م (أعلام المسلمين ٦٥) .

(٢) وحى القلم : ٢ / ١٢ نقلا عن المصدر السابق ص ٦١ .

فكانت الإنسانية دهرها بين اثنين : أحدهما فتح لها طريق المجئ من الجنة ، والثانى فتح لها طريق العودة إليها ، كان فى آدم سر وجود الإنسانية ، وكان فى محمد سر كمالها .. " .

خصائص المقالة الدينية :

- تهتم المقالة الدينية بإبراز العاطفة الدينية .
- وأهم ما يجب فى المقالة الدينية هو الصدق والإقناع .
- ليس شرطا فى المقالة الدينية أن تتصف بكثير مما يزين الأسلوب الأدبى ، من العذوبة والرقة ، واختيار العبارات الموحية ، ونحو ذلك .
- كثيرا ما تهتم هذه المقالة بالمناسبات والمواسم الدينية .
- تبين عن الشعور الإسلامى الجماعى .
- إنها ضرب من ضروب النثر الوجدانى .
- المقالة الدينية قوية الصلة بالأدب عند الأدباء المطبوعين ، ممن يحسنون صناعة المقالة الأدبية بطبعهم ، ويخلصون لها ، ويتعبون أنفسهم فى سبيل تجويد الأسلوب وتنقيته مما يشوبه من عيوب الفن المعروفة ، كالعامية ، والضعف اللغوى وسوء التركيب ، واختلال موازين الكتابة ، كالجهل بالعبارة المناسبة ، وعدم التوفيق إلى اللفظة تجيئ فى محلها ،

والسوقية فى الصياغة ، والابتذال فى الفكرة ، ورداءة الغرض " (١) .

- وتشمل المقالة الدينية ما يشمله الإسلام وحضارته وثقافته من قضايا ، وما أثاره المبشرون والمغرضون من الغربيين من دعاوى باطلة ، ومزاعم مفتراه ، وهذا واضح غاية الوضوح عند العقاد خاصة (٢) .

(٣) المقالة العلمية :

والمقصود بها ما تناوله الكتاب من مباحث فكرية تتصل بالعقل ، أو بالفكر الدينى ، أو الفلسفى ، أو مباحث علمية تتصل باللغة العربية : قيمتها ، ومفرداتها ، وفنونها ، وغيرذلك .

والمقالة العلمية تنقسم إلى نوعين :

(أ) مقالة علمية بحتة : وهى التى " تعنى بمعالجة قضية من قضايا العلم ، كأن تتحدث عن نظرية فى الطب ، أو فى الجبر ، أو الهندسة ، أو الكيمياء ، أو الفيزياء ، أو الطبيعيات ، أو تعرض ما توصلت إليه هذه العلوم ، أو تعرف الناس بالمكتشفات العلمية الحديثة ، أو تحاول توضيح المعطيات التى ترتكز عليها الأبحاث العلمية عامة " (٣) .

---

(١) المقالة فى الأدب السعودى ، د / محمد العوين : ١ / ٢٠٨ .

(٢) انظر المقالة فى أدب [illegible] ، د / عبد القادر رزق الطويل .

(٣) البلاغة والتحليل الأدبى ، د / أحمد أبو حاقه ص ٢٢٩ . دار العلم للملايين بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م .

والمقالة بهذا المعنى تمتاز بدقة الألفاظ ، وجفاف الفكرة ، وكثرة المصطلحات العلمية ، والبعد عن العاطفة ، والموضوعية الصرفة .

(ب) مقالة علمية متأدبة ، ومن خصائصها [١] تناول الموضوعات العلمية ، ودقة اللغة ، وتحديد الألفاظ ، واستخدام بعض الألفاظ العلمية والأرقام الحسابية ، والبعد عن الجفاف العلمى ، وذلك عن طريق الاستعانة بمؤثرات فنية كالصور التوضيحية ، وجاذبية العرض ، يضاف إلى ذلك أن هذه المقالة تجمع بين الإفادة والتأثير .

والكاتب فى المقالة العلمية يسعى إلى إثبات أكبر قدر ممكن من المعارف ، وزيادة معلومات الناس وتوسيع ثقافتهم ، وتنمية عقولهم ومنطقهم ، وتعريفهم بما يجهلون ، وتقوية معرفتهم بما يعرفونه معرفة ناقصة .

وتكاد تكون المقالة العلمية هى المقالة الموضوعية ، من حيث التزامها بالتقسيم المتبع فى الكتابة المقالية عن أى موضوع علمى لتكون قضاياه متواصلة ، بحيث تكون كل قضية نتيجة لما قبلها مقدمة لما بعدها حتى تنتهى جميعا إلى الغاية المقصودة ..[٢] .

---

(١) انظر : المقال وتطوره فى الأدب المعاصر ، د / السيد مرسى أبو ذكرى ص ٨٢ .

(٢) المقالة فى الأدب السعودى ، د / محمد العوين : ١ / ٢١٩ .

وقد خصصت بعض المجلات قسما منها فى كل عدد للمقالة العلمية ، ومن هذه المجلات : (المقتطف) و (العربى) الكويتية و(الفيصل) و (المجلة العربية) و (القافلة) السعودية و (الثقافة) السورية و (الدوحة) القطرية و (الثقافة العربية) الليبية و (البحرين الثقافية) فى البحرين .

ومن كتاب المقالة العلمية فى الأدب العربى الحديث والمعاصر : أحمد أمين ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، والعقاد ، وفؤاد صروف ، ويعقوب صروف ، وأحمد زكى ، وعبد الحليم منتصر ، ومحمد حسن كتبى ، ومحمد سعيد عبد المقصود خوجه ، وغيرهم .

وكتاب المقالة العلمية يكتبون فى مسائل شتى ، ويسهمون فى التذكير بألوان من المعارف العامة فى تراثنا الأدبى والفكرى ، كالحديث عن العرب ومنازلهم ، والفصحى والعامية ، والأنساب ، والشعر والنثر ، والتأريخ ، وصلة الذوق باللغة ، ومدارس الأدب ، ونحو ذلك .

ومن الأساليب الأدبية العلمية فى هذا اللون من المقال ما كتبه مصطفى لطفى المنفلوطى حول ادعاء المتشاعرين ، وأثر ذلك على الأدب ، يكشف فيه عن حقيقتهم ، يقول فيه [١] :

---

(١) انظرها فى : النظرات : ١ / ٩٦ ، ٩٧ .

" ما لهؤلاء النظامين لا يهدأون ساعة واحدة عن تصديع رؤوسنا ، وتمزيق أفئدتنا بهذه الصواعق التى يمطرونها علينا كل يوم من سماء الصحف حتى صرنا كلما فتحنا صحيفة ، ورأينا فى وسطها جدولا أبيض مستطيلا تخيلناه حية رقطاء ، ففزعنا وألقينا الصحيفة كما ألقاها الشاعر المتلمس لينجو بنفسه ويسلم بحياته .

من لى بذلك القلم العريض الذى يكتب كتاب الصحف السياسية عناوين مقالاتهم فى معرض التهويل والتفخيم ، فأكتب إلى هؤلاء المساكين هذه الكلمة الآتية :

أيها القوم : إن علماء الضاد الذين عرفوا الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى لم يكونوا شعراء ولا أدباء ، ولا يعرفون من الشعر أكثر من إعرابه ، وبنائه ، واشتقاقه ، وتصريفه ، وإنما جروا فى ذلك التعريف مجرى علماء العروض الذين لا مناص لهم من أن يقفوا فى تعريف الشعر عند هذا القدر ما دام لا يتعلق لهم غرض منه بغير أوزانه ، وقوافيه ، وعلله ، وزحافاته .

لا تظنوا أن الشعر كما تظنون ، وإلا لاستطاع كل قارئ بل كل ناطق أن يكون شاعرا ، لأنه لا يوجد فى الناس من يعجزه تصور النغمة الموسيقية والتوقيع عليها من أخصر طريق .

أيها القوم : ما الشعر إلا روح يودعها الله فطرة الإنسان من مبدأ نشأته ، ولاتزال كامنة فيه كمون النار فى الزند ، حتى إذا اشتد فاضت على أسلات أقلامه كما تفيض الكهرباء على أسلاكها . فمن أحس منكم بهذه الروح فى نفسه فليعلم أنه شاعر ، أولا فليكف نفسه

مؤونة التخطيط والتسطير ، وليصرفها إلى معاناة ما يلائم طبعه ويناسب فطرته من أعمال الحياة ، فوالله للمحراث فى يد الفلاح ، والقدوم فى يد النجار ، والمسبر فى يد الحداد ، أشرف وأنفع من القلم فى يد النظام .

فإن غم عليكم الأمر ، وأعجزكم أن تعلموا مكان تلك الروح الشعرية من نفوسكم فاعرضوا أنفسكم على من يرشدكم إليكم ، ويدلكم عليكم ، حتى تكونوا على بينة من أمركم .. " .

ومهما يكن من قيمة هذه المقالة من الناحية العلمية ، فليس يخفى على القارئ أن أسلوبها مثال الوضوح الناشئ عن دقة الكلمات ، وسهولة التراكيب ، وتواصل الفقرات لفظيا ومعنويا ، فكانت العبارة واضحة إن شئت فقل على الرغم من الإطار العلمى .

ومن كتاب المقالة العلمية الأستاذ أحمد أمين (١) ، فهو كاتب أفكار فى المقام الأول (٢) وليس صاحب ديباجة بيانية ، تحتفل بالتعبير المؤنق ، وبالموسيقى ، وبالصور الجمالية ، وقد تيسرت له هذه المقالة لتوفر حسن الاستعداد عنده ، من معرفة بأدوات البحث ، وأساليبه ومناهجه .

---

(١) انظر كتابه : (فيض الخاطر) ، وانظر مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٢) انظر : أحمد أمين مؤرخ الفكر الإسلامى ، د / محمد رجب البيومى ، ص ٩٥ .

ولعل كثرة مقالات الأستاذ أحمد أمين العلميـــة ، واشـــتهاره بالتأليف العلمى الرائع البالغ حد الريادة والتوجيه هـــو الـــذى حـــدا ببعض الباحثين إلـــى أن يعدوه كاتب مقالة علمية لا كاتـــب مقالـــة أدبية [١] ، مع ما فى هذا الرأى من تجاوز ، وهو السبب نفسه الذى جعل الدكتور زكى مبارك "ينكر أن لأحمد أمين أسـلوبا متميـزا ؛ ويعده باحثا لا يجيد تحليل الخواطر ، وتصوير النزعات" [٢] ، وإن تراجع الدكتور بعد عن هذا الرأى .

(٤) المقالة الفلسفية :

وهى المقالة التى تعرض لشئون الفكـر والفلسـفة بالتحليـل والتفسير ، فتحلل قضاياها ، وتفسر غامضها بلغة الأدب وأسـلوب الأدباء [٢] .

والحقيقة أن مهمة الكاتب فى هذا اللون المقالى صعبة للغاية ؛ إذ عليه أن ينقب عن الأسس الحقيقية للموضوع الذى يتناوله ، كمـا أن عليه أن يعرض مادته بدقة ووضوح حتى لا يضل القارئ فـى متاهات الموضوع الذى يسير فى سياق علمى موضوعى .

ومن كتابنا الذين لهم إسهام فى المقالـة الفلسـفية المتصلـة بالمقالة الأدبية : أحمد لطفى السيد ، وأحمد حسن الزيات ، وعلـى

---

(١) انظر : فصول فـى الأدب والنقد ، د / طه حسين ، ص ١٣ وما بعدها . دار المعارف ، مصر .

---

(٢) أحمد أمين مؤرخ الفكر الإسلامى ، د / محمد رجب البيومى ، ص ٩٩

(٢) انظر : المقال وتطوره فى الأدب المعاصر ، د / السيد مرسى أبو ذكرى ص ٧٧

أدهم ، وأحمد أمين ، وأحمد فؤاد الأهوانى ، وزكى نجيب محمود ، وفؤاد زكريا ، وحسن حنفى ، ومحمد عبد الواحد حجازى ، وغيرهم . فقد كتب كل هؤلاء حول الفلسفة ، وكتبوا فى منازع شتى من المنازع الفلسفية التى تهم الإنسان أيا كان بما يكتنفه من تاريخ وعلى وجه الخصوص التاريخ العقائدى ، وتراكم حضارى .

كما كتبوا عن الخلافات فى الرأى ، وكيف يكون الخلاف ضرورة من ضرورات الحياة ، ويأتى الواحد منهم بالدليل تلو الدليل لكى يثبت أن الخلاف رحمة ونعمة من الله سبحانه ، وأنه لا يفسد للود قضية ، فهو مدعاة للاطمئنان والتفاؤل .

والحقيقة أن الغرض العلمى المجرد الذى قد تقوم عليه بعض المقالات الفلسفية ، وما يصحب هذه المقالات من كتابة علمية جافة أمر لا شأن لنا به ، فهذا الأمر لا يوصلنا إلى جديد فى الحديث عن المقالة الفلسفية الأدبية .

وقد كتب أحمد أمين مقالة فلسفية عنوانها : " جزيرة بلا سياسيين " وفيها يقول (١) :

" كان الشيخ محمد عبده يقول : " لعن الله السياسة وساس ويسوس وسائس ومسوس ، وكل ما اشتق من السياسة ، فإنها ما دخلت شيئا إلا أفسدته " .

---

(١) مجلة الهلال ص١٥ عدد فبراير ١٩٥٢ م . نقلا عن كتاب " التحرير الأدبى " ، د / حسين على محمد ص ١٨٦ ، ١٨٧ . نشر مكتبة العبيكان ، الرياض ١٤١٧هـ ١٩٩٦م .

كل شيء فى العالم يتغير حتى الأهرام ، عريت بعد أن كانت مكسوة ، وحتى أبو الهول كسرت الأيام أنفه وعلتــه بالرمـــال ، إلا السياسة الاستعمارية فإنها لم تتغير بوجه مـــن الوجـــوه . وعقليـــة الساسة فى القرن الثامن عشر هى عقليتهم فى القـــرن العشـــرين ، يظنون أن التهديد والوعيد يرعب الأمم ، ويقضى عليهـــا ، وينفـــذ رغبة المستعمرين ، فبعد ضرب الإسكندرية بســبعين عامــا ظلــوا يفهمون أيضا أن ضرب الإسماعيلية أيضا ينتج نفس النتيجـــة مـــع اختلاف المقدمات اختلافا كبيرا .

فقد كان الرعب يستولى على النفوس ، ولم يكن وعى قـــومى يفهم ألاعيب السياسة ولاشيء من ذلك ، ولكن عقلية الإنجليز فهمت أن ما جرب بالأمس ونجح يجرب اليوم وينجح ، أما الفوارق الكبيرة وخصوصا الفوارق النفسية فقد أغمضوا أعينهم عنها .

ثم أود أن أعيش فى جزيرة مطمئنة هادئة ليس فيها ساســـة ، ولكن مع الأسف لا يمكن أن يعيش الإنسان من غير حكومـــة ومـــن غير ساسة يسوسون الناس .

فكل مجتمع لا بد فيه مـــن مجرميـــن وأشرار ، وطـــامعين ونهابين ، فما لـــم تأخذ الحكومة علـــى يدهم عاثوا فـــــى الأرض فسادا ، فلا يمكـــن لجزيرة أن تعيش مـــن غيـــر حكومـــة ، وكـــل كتاب " اليوتوبيـــا " (أو بعبـــارة أخـــرى " المـــدن الفاضـــلة ") ، وأفلاطون نفسه فى " جمهوريته " لم يخلوا بلادهم التى عدوها مـــثلا أعلى من ساسة ومن حكومة .

غاية الأمر أنهم أملوا أن تكون الحكومة فيها حكومة عادلة ، حكومة ترعى الأمة ، ولا تستبد بها ، وتأخذ بيدها ولا تمحقها ، حكومة متسعة العقل ، مرنة ، تتطور مع الأحداث ، وتعلم أن ما صلح أمس لا يصلح اليوم ، لا كساسة الإنجليز والفرنسيين لا يتحولون عما فى أذهانهم مهما تغيرت الظروف " .

خصائص المقالة الفلسفية (١)

– تميل المقالة الفلسفية إلى التحليل الدقيق ، سواء أكان ذلك للنفس والمشاعر ، أو للكون وغيره .

– يتوافر فى المقالة الفلسفية الكثير مما يثير نهم الناقد إلى التحليل والاستشهاد .

– تهدف المقالة الفلسفية إلى توضيح مغزى ما ، أو فلسفة ما .

– تعنى المقالة الفلسفية بالكشف عن الحقيقة .

– تجنح إلى التفكير ، واستبانة المنهج الفلسفى والعقلى .

– قد تنطلق المقالة الفلسفية من الواقع وأحداثه ومعطياته ، لتتأمل من ثم حدثا ما ، أو قضية فكرية ، وهذا ما فعله أحمد أمين فى مقالته السابقة ، فقد انطلق من الواقع (لا يمكن أن يعيش الناس من غير حكومة ، ومن غير ساسة يسوسون الناس) ليناقش هذه الفكرة الجديرة بالنقاش ، ويوضح مغزى (أو فلسفة) أن يكون للناس حكومة وساسة ، ذلك أمر ضرورى فى حياتنا .

---

(١) انظر : المقالة فى أدب العقاد ، د / عبد القادر الطويل ، ص ٢٥٨ وما بعدها .

(٥) مقالات أخرى :

والحقيقة أن فى أدبنا العربى ألوانا أخرى مختلفة ومتعددة من المقالات ، لا يمكن حصرها ولا عدها ، ويتأتى هذا من أن المقالة موكلة بكل مواضيع الحياة ، فمن الصعب على الباحث أن يحصرها أو يقسمها .

وسأكتفى هنا بالإشارة إلى ما تفرق من هذه الألوان ، ومنها :

(أ) المقالة الانطباعية : (١)

وهى المقالة التى تصور انطباعات الكاتب تجاه موقف من المواقف ، أو مشهد من المشاهد التى رآها ووقع نظره عليها .

وهذا اللون من الكتابة يحتاج إلى بصيرة نافذة ، وعقل لاقط ، قادر على الاكتشاف والرؤية ، ولم لا وهذه المقالة فى صميمها اجتزاء لفكرة عابرة يريد الكاتب من خلالها أن يسجل انطباعه .

ومن كتاب هذه المقالة : عبد العزيز البشرى ، وأحمد أمين ، والعقاد ، وميخائيل نعيمة ، ومصطفى أمين ، ومصطفى محمود ، ومحمد فهمى عبد اللطيف ، وأحمد بهجت ، وأنيس منصور ، وغيرهم .

---

(١) انظر : المقال وتطوره فى الأدب المعاصر ، د / السيد مرسى أبو ذكرى ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

(ب) الخاطرة : [١]

وهى لون مقالى يقوم على اللمحة الذهنية ، يلــتقط صــورة خاطفة مرت بالذهن مصادفة ، ليس فيها عمق ، ولا فكرة ناضجة ، ويأخذ الكاتب هذه الخاطرة فيحيلها إلى قطعة فنية ، هى فى صميمها مقالة أدبية من اللون الذاتى ، كما قد تكون من اللــون العلمــى ، أو الاجتماعى .

وفى أدبنا العربى الحديث ألوان كثيرة من أدب الخاطرة هــى قمة فى النثر الفنى مــن حيث القيم الجمالية والفكرية ، ومــن ذلك ما كتبه إبراهيم عبــد القادر المازنى فــى كتابه : (صندوق الدنيا) ، ومصطفى صادق الرافعى فى كتابه : (الســحاب الأحمــر) ، و المنفلوطى فى كتابيه : (العبرات) و (النظــرات) ، والــدكتور / زكى مبارك فى كتابه : (الحديث ذو شــجون) ، وجبــران خليــل جبران فــى كتابه : (دمعة وابتسامة) ، وأحمــد أمــين بمقالاتــه التــى نشرها بمجلة الثقافة تحت عنوان : (مدرسة جديدة) [٢] .

ويمكن أن نشير إلى أن خواطر المنفلوطى التى أوردها فــى كتابيه قد تسربت إليها الروح القصصية ، وقــد حــاول جاهــدا أن يضفى على هذه الخواطر جو القصة ، كوسيلة منــه لتجســيم تلــك الخواطر التى ينشد معالجتها .

---

(١) انظر : أحمد أمين مؤرخ الفكر الإسلامى ، د / محمد رجب البيومى ، ص ٩٩ .

(٢) انظر له : فيض الخاطر : ٩ / ٢٤٩ وما بعدها ، الطبعة الأولى ١٩٥٥ م .

ومن يقرأ هذه الخواطر يرى فيها من روح القصة : السرد ، بيد أنه سرد عادى لا فنية فيه ، والكاتب يخلق من نفسه شخصية قصصية ، ويجعلها محورا للحدث فى الخاطرة التى هى صيد اللحظة .

ومن الواضح أن الصحافة كانت على رأس العوامل الرئيسة التى ساعدت على نشأة الخاطرة ، فلقد أولتها اهتماما خاصا ، وأفردت لها أبوابا ثابتة فى أعدادها المختلفة ، لدرجة أنه لا تكاد تخلو مجلة من المجلات ، أو صحيفة من الصحف من زاوية أو زوايا خاصة بالخاطرة ، تلك التى عنت للكاتب ، وانبعثت لمرأى ، أو مشهد ، أو حادث ، أو ذكرى .

ومن كتاب هذا اللون فى صحافتنا المصرية : أنيس منصور ، وأحمد الصاوى محمد ، ومختار الوكيل ، ومحمد زكى عبد القادر ، ومحسن محمد ، وعبد السلام داود ، وصلاح منتصر ، وإبراهيم سعدة ، وعبد الرحمن فهمى .

(ج) الرسالة :

والرسالة فن أدبى يكتبه الناثرون فى أغراض شتى ، منها الإخوانى ، والإدارى ، والوصايا ، ورسائل المسائل العلمية ، ونحو ذلك .ومن ينظر التاريخ الأدبى العربى يرى أن الرسالة تعد من

الأصول الأولى لفن المقالة الأدبية ، والجذور التى نمت هذه الألوان المختلفة من النثر الفنى [١].

وفى أدبنا العربى نصوص كثيرة من الرسائل التى تجمع خصائص المقالة والخاطرة ، وإن لم تأخذ حظها من الجمع والدراسة والتأمل ، وانظر على سبيل المثال ما كتبه عبد الحميد الكاتب ، وابن المقفع ، وأبو حيان التوحيدى ، والجاحظ ، وابن زيدون [٢].

ومن أهم مميزات الرسالة أنها نص سهل ، ينثر الكاتب فيه ذاته ، ويستقرئ دخيلة نفسه ، وينطلق فيه على سجيته وطبعه ، دون اتكاء على أسلوبه الأدبى المتقن .

ومن نماذج الرسالة رسالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم القبط سنة ست من الهجرة ، وهذا نصها :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط . و " يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا

---

(١) المقالة فى الأدب السعودى ، د / محمد العوين : ١ / ٢٤١ .

(٢) انظر الفصل الأول : (ملامح المقال فى الأدب العربى القديم) من كتاب الدكتور / السيد مرسى أبو ذكرى : (المقال وتطوره فى الأدب المعاصر) .

وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون " [١] .

(د) ألوان أخرى :

ويمكن أن نضيف إلى هذه الألوان السابقة عشرات النصوص المقالية الأخرى المتعددة الأغراض ، مثال ذلك : المقالة الرمزية الساخرة ، والمقالة القصصية ، والمقالة الساخرة ، والفكاهة ، والسيرة الذاتية ، ومقالة الحوار والمناقشة [٢] .

وفى مقالة السيرة الذاتية يترجم الكاتب لسيرة إنسان ، ويعكس فيها انطباعه عنه ، ومدى تأثره به ، كل ذلك فى تعبير جيد لائق ، وحسن تنسيق ، وذلك كما فعل أحمد أمين فى كتابه : (فيض الخاطر) .

---

(١) جمهرة رسائل العرب فى عصور العربية الزاهرة ، أحمد زكى صفوت : ١ / ٤٢ . المكتبة العلمية ، بيروت .

(٢) انظر : المقال وتطوره فى الأدب المعاصر ، د / السيد مرسى أبو ذكرى ، ص ٧٣ وما بعدها .

مقالات السيرة الذاتية

وأهم كتابها

يعد أحمد أمين من أعظم الكتاب الذين ترجموا لأنفسهم فـي العصر الحديث ، وله كتاب بعنوان " حيـاتى " وهـو مـن الكتـب العظيمة فى مجال الترجمة الشخصية ، وليس أدل على ذلـك مـن طباعة هذا الكتاب أكثر من خمس طبعات .

ولد أحمد أمين فى مدينة القاهرة فى أكتوبر عام ١٨٨٦ م فى وسط مثقف ، إذ كان والده مصححا بالمطبعة الأميرية ببولاق (حى من أحياء القاهرة) أحيانا ومدرسا فى المدارس الحكوميـة أحيانـا أخرى .

وكان والده مولعا بجمع الكتب فى مختلف العلوم وفى جميـع التخصصات ، فى الفقه والحديث والتفسير واللغة والأدب والتـاريخ والصرف والبلاغة ، ولعل عمله الذى كان يقوم به (وهو مصـحح بالمطبعة الأميرية) قد مكنه من أن يقتنى كثيرا من مطبوعات هـذه المطبعة ، ولا شك أن هذه الكتب كانت أطيب غذاء لأحمد أمـين ، وليس أدل على ذلك من أنه كان يمضى الساعات بل الليالى والأيـام يقرأ هذه الكتب ويستفيد من دورها ، وقد صارت هذه الكتب بمرور الأيام نواة لمكتبة أحمد أمين نفسه .

ورث أحمد أمين عن أمه قصر النظر ، ولقى بسبب هذا عناء كبيرا فى حياته ، يقول فى ذلك :

" فإذا تقدمت للدخول فى دار العلوم حرمت من ذلك لقصر نظرى ، وإذا تقدمت للدخول فى مدرسة القضاء فكذلك إلا أن تحدث معجزة ، وإذا أريد تثبيتى فى وظيفة سقطت فى امتحان النظر ولم أثبت إلا بمعجزة أخرى ، وتحدث أحداث كثيرة مخجلة وغير مخجلة نتيجة لقصر نظرى ، فقد لا أسلم على أحد يجلس بعيدا عنى فيظن بى الكبر ، وقد أكون على موعد فى مقهى فأدخل ولا أرى من وعدتهم إلا أن يرونى ، وقد أمر فى الشارع على من أنا فى حاجة إليه فلا أراه .

وقد أحب أن أذهب إلى السينما أو التمثيل للاسترواح فلا أذهب ، وهكذا من أحداث سيئة لا تحصى صادفتنى فى حياتى إلى أن اضطررت منذ شبابى إلى لبس نظارة ، وكنت من سنة إلى أخرى أغير النظارة بأخرى أسمك منها حتى صارت فى آخر الأمر نظارة سميكة ، واعتادت عينى هذه النظارة ، وكانت لها كذلك سيئات ، فإذا كسرت أو نسيتها فى البيت صرت كأنى أعمى ، وقد رأيتنى فيما بعد أحتاج إلى نظارتين ، نظارة للقراءة ونظارة للسير والعمل ، ولا تسأل عن متاعب ذلك ، ومع قصر النظر هذا كان النظر القصير نعمة كبيرة إذا قارنت بينه وبين العمى ، فكل الأشياء الجوهرية من رؤية أشخاص ورؤية مناظر جميلة كان يكفى قصر نظرى فى إدراكها " [١] .

---

(١) حياتى ، أحمد أمين ، ص ٢٥ ، ٢٦ . مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السادسة .

أدخله والده الكتاتيب ، ولبث فى هذه الكتاتيب نحـــو خمـــس سنوات حفظ على أثرها القرآن الكريم ، وتعلم القراءة والكتابة ، ثـــم أدخله مدرسة ابتدائية نموذجية هى الآن مدرسة " بنبا قـــادن " وقـــد تعلم فى هذه المدرسة اللغة العربية وبعض مبادئ الحساب وبعـــض اللغات الأجنبية .

ولم يلبث والده أن يختار له الأزهر الشريف ليدرس فيه الفقه الحنفى بجانب العلوم الدينية الأخرى ، ولكنه لم يصبر على دراســـة الأزهر ، لأنه لم يتقبل طريقة هذه الدراسة فى الحواشـــى ، وإنمـــا صبر على تدريس والده له وبخاصة فى الأجـــازات ، ولا شـــك أن والده كان شيخا عظيما وكان قادرا على الإفهام ، وقد قرأ لابنه كتب " قطر الندى " و " شذور الذهب " و " شرح ابن عقيل " ولقى أحمـــد بسبب من هذا نجاحا كبيرا ، لدرجة أن بعض زملائه كانوا يطلبـــون منه أن يقرأ لهم شرح ابن عقيل فى بعض أوقات الفراغ وكان يفعل ذلك .

عين مدرسا للغة العربية فى مدرسة راتب باشا بالإسكندرية ، ثم لم يلبث بعد سنتين أن عين فى مدرسة والده عباس باشـــا الأول ، وهى المدرسة التى تعلم فيها صغيرا والتى كان يحن إليها أيام تعليمه بالأزهر .

والتحق بمدرسة القضاء ، وتلقى فيهـــا التفســـير والحـــديث والتوحيد وأصول الفقه ونحو ذلك ، فكان أن تثقف ثقافة لغوية أدبية من نحو وصرف وأدب ، وثقافة قانونيـــة عصـــرية مثـــل أصـــول

القوانين الحديثة ونظام القضاء والإدارة وغير ذلك ، وثقافة أخرى في الجغرافيا والتاريخ والطبيعة والكيمياء وما إلى ذلك .

والتحق آنذاك بالجامعة المصرية الأهلية ، واستمع إلى محاضرات في الفلسفة الإسلامية ، ومحاضرات في الجغرافية العربية ، وكان يحضر هذه المحاضرات لماما في غير التزام ولا انتظام .. وعلى كل حال فإنه استفاد من الجامعة في عملية البحث والاستقصاء والرجوع إلى المراجع وغير ذلك .

عمل قاضيا في " قويسنا " ثم في محكمة " الأزبكية " وحين طلب منه الدكتور طه حسين أن يعمل مدرسا في كلية الآداب قبل ، لأنه كان ينفر من وظيفة القضاء ، وكانت هذه فرصة كبيرة ينطلق بسببها في ميدان اللغة والأدب .

واشترك في مشروع بحثي واسع وضعه هو وزميلاه الدكتور طه حسين والأستاذ عبد الحميد العبادي ، وخلاصة هذا المشروع كانت تدور حول دراسة الحياة الإسلامية من نواحيها الثلاث في العصور المتعاقبة من أول ظهور الإسلام ، فاختص الدكتور طه حسين بالحياة الأدبية ، واختص الأستاذ العبادي بالحياة التاريخية ، واختص الأستاذ أحمد أمين بالحياة العقلية .

أخذ يترقى في مجال التأليف ، فألف في سنتين كتاب " فجر الإسلام " عام ١٩٢٨ م ، وسافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج عام ١٩٣٧ م مع بعثة الجامعة المصرية ، ثم اتيحت له فرص للسفر إلى أوربا للاطلاع على العلوم والآداب الأوربية .

ترقى فى كلية الآداب من مدرس إلى أستاذ مساعد ، ثم صار عضوا فى مجلس إدارة الكلية ، ولكنه حيل بينه وبين الترقية إلى درجة أستاذ بحجة أنه لم يحصل على درجة الدكتوراه ، فتقدم بكتابيه : فجر الإسلام " و " ضحى الإسلام " لينال بهما درجة الدكتوراه ، لكن إصرار وزير المعارف على رفض ذلك حال بينه وبين رغبته .

أقام له زملاؤه من أساتذة الجامعة وأعضاء لجنة التأليف حفلا تكريميا عام ١٩٢٥ م حضرها أعضاء لجنة التأليف وكبار رجال المعارف ، وكبار رجال السياسة من مختلف الأحزاب ، وكان من بين الحاضرين مدير الجامعة آنذاك / أحمد لطفى السيد ، وأحمد ماهر ، والدكتور على إبراهيم ، والدكتور إبراهيم الهلباوى ، وعبد العزيز فهمى ، والشيخ محمد مصطفى المراغى .

وحين خلا مركز عميد كلية الآداب فى أبريل عام ١٩٣٩ عينه محمود فهمى النقراشى عميدا لها ، ومكث عميدا لها لمدة عامين ، ترك العمادة بعدها وعاد ليعمل أستاذا فى الكلية ، وظل يكتب المقالات ويؤلف الكتب ، وكان يكتب فى مجلات " الرسالة " و " الهلال " و " المصور " وغيرها ، ولما كثرت مقالاته جمعها وأودعها ثمانية أجزاء من كتبه وسماها " فيض الخاطر " .

انتدب وهو أستاذ بكلية الآداب ليعمل مديرا للإدارة الثقافية بوزارة المعارف ، وكان وزير المعارف إذ ذاك الدكتور / عبد الرازق السنهورى ، وعنى وهو فى هذا العمل بتشجيع ترجمة

أمهات الكتب الغربية إلى اللغة العربية ، وكان هـذا العمـل نـواة توسعت فيها الوزارة فيما بعد .

وحين ألم به المرض استقال من رياسـة الإدارة الثقافيـة ، وأخذ يتخفف من الكثير من أعماله ، ثم أحيل إلى التقاعد بعد أن بلغ سن الستين ، وفى عام ١٩٤٨ م قرر مجلس كلية الآداب ومجلس جامعة فؤاد الأول منحه الدكتوراه الفخريـة ، ولقـب مـن وقتهـا بالدكتور / أحمد أمين .

وله مؤلفات كثيرة منها : فجر الإسلام ، وضحى الإسـلام ، وظهر الإسلام ، وفيض الخاطر ، وزعماء الإصـلاح ، والشـرق والغرب ، ويوم الإسلام ، ومبادئ الفلسـفة ، والأخـلاق ، والنقـد الأدبى ، وقصة الفلسفة اليونانية ، وقصة الفلسفة الحديثة .

ويكفى أحمد أمين أنه أهدى إلينا كنوزا مـن أقـوم الكنـوز وأعظمها ، فسلسلة " فجر الإسلام وضحاه وظهره " من أروع مـا يحلل الحياة العقلية للعرب والمسلمين ، ومن يقرأ هذه المؤلفات يلمح أنها نقلت من أصح المصادر ، واشتملت على أدق الآراء العلميـة ، وحللت الحياة العقلية تحليلا جعلها تظفر بالذيوع والانتشـار حتـى أصبحت مرجعا لكل باحث أو دارس ، وستظل هذه الكتب الخالـدة شاهدة على صبر أحمد أمين على القراءة والكتابة .

أهم كتب السيرة الذاتية :

يعد كتاب " حياتى " من الكتب التى ظفرت بحظ كبيـر مـن الذيوع والانتشار فى مجال الترجمة الشخصية ، وقد صدرت الطبعة الأولى له عام ١٩٥٢ م ، وما يزال الكتاب يواصل طبعاته المختلفة والكاتب فى بعض الطبعات كان يعيد القراءة فيزيـد فـى بعـض المواقف زيادة يراها ضرورية .

والكتاب يدل على صراحة أحمد أمين وصدقه ، وإن كان قد عبر فى مقدمته عن تهيبه من هذه الترجمة وإخراجـه لمثـل هـذا الكتاب ، يقول :

" لم أتهيب شيئا من تأليف ما تهيبت من إخراج هذا الكتاب ، فإن كل ما أخرجته كان غيرى المعروض وأنا العارض ، أو غيرى الموصوف وأنا الواصف ، وأمـا هـذا الكتـاب فأنـا العـارض والمعروض والواصف والموصوف ، والعـين لا تـرى نفسـها إلا بمرآة ، والشيء إذا زاد قربه صعبت رؤيتـه ، والـنفس لا تـرى شخصها إلا من قول عدو أو صديق ، أو بمحاولة للتجرد ثم توزيعها على شخصيتين : ناظرة ومنظورة ، وحاكمة ومحكومة ، وما أشـق ذلك وأضناه .

ومع هذا فكيف يكون الإنصاف ؟ إن النفس إما أن تغلو فـى تقدير ذاتها فتنسب إليها ما ليس لها ، أو تبالغ فى تقدير مـا صـدر عنها ، أو تبرر ما ساء من تصرفها ، وإما تغمطها حقها ويحملهـا حب العدالة على تهويل شأنها فتلبها ما لها ، أو تقلـل مـن قيمـة

أعمالها ، أو تنظر بمنظار أسود لكل ما يأتى منها ، أما أن تقف من نفسها موقف القاضى العادل والحكم النزيه فطلب عز على الفلاسفة والحكماء [١] .

ومع أن أحمد أمين قد بذل كل جهده فى هذا الكتاب ، وتحرى فيه الصدق والأمانة ، مع هذا كله فقد تهيب من نشره ، يقول :

" وترددت – أيضا – فى نشره : ما للناس و " حياتى " ؟ لست بالسياسى العظيم ، ولا ذي المنصب الخطير الذى إذا نشر مذكراته أو ترجم لحياته أبان عن غوامض لم تعرف أو مخبآت لم تظهر ، فجلى الحق وأكمل التاريخ ، ولا أنا بالمغامر الذى استكشف مجهولا من حقائق العالم ، فحال وصفه وأضاف ثروة إلى العلم ، أو مجهولا من العواطف – كالحب والبطولة أو نحوهما فجلاه ، وزاد بعلمه فى ثروة الأدب وتاريخ الفن – ولا أنا بالزعيم المصلح المجاهد ناضل وحارب وانتصر وانهزم ، وقاوم الكبراء والأمراء ، أو الشعوب والجماهير فرضوا عنه أحيانا ، وغضبوا عليه أحيانا ، وسعد وشقى ، وعذب وكرم ، فهو يرى أحداثه لتكون عبرة ، وينشر مذكراته لتكون درسا . لست بشىء من ذلك ولا قريب من ذلك ففيم أنشر حياتى " [٢] ؟ .

---

(١) مقدمة الطبعة الأولى " من حياتى " ص ٣ .

(٢) مقدمة الطبعة الأولى " من حياتى " ص ٥ .

على كل حال فكرة الترجمة للنفس قد راودت الأستاذ أحمد أمين وهو فى أول عهده بالشباب ، فقد دون مذكرات يومية عن حياته وعن رحلاته وأهم الأحداث التى تمر عليه ، وأهم الأحداث السنوية ، ما يسر منها وما يسوء .

يقول فى مقدمة كتابه : " فلماذا ــ إذن ــ لا أؤرخ " حياتى " لعلها تصور جانبا من جوانب جيلنا ، وتصف نمطا من أنماط حياتنا ، ولعلها تفيد اليوم قارئا ، وتعين غدا مؤرخا ، فقد عنيت أن أصف ما حولى مؤثرا فى نفسى ونفسى متأثرة بما حولى .

نبتت عندى فكرة تاريخ حياتى منذ أول عهد شبابى ، فقد رأيتنى أدون مذكرات يومية عن رحلاتى ، وعن حياتى فى الأسرة أيام زواجى ، ووجدتنى أسجل فى المفكرات السنوية أهم أحداث السنة ، وما يسوء منها وما يسر ، ولكن لم يكن كل ذلك عملا منظما متواصلا ، بل كان يحدث فى فترات متقطعة ــ ثم نمت الفكرة وشغلت بالى فى العام الماضى ، فكنت أعصر ذاكرتى لأستقطر منها ما اختزنته منذ أيام طفولتى إلى شيخوختى ، وكلما ذكرت حادثة دونتها فى إيجاز ومن غير ترتيب ــ فلما فرغت من ذلك ضممته إلى مذكراتى اليومية ثم عمدت فى الأشهر القريبة إلى ترتيبه وكتابته من جديد على النحو الذى يراه القارئ من غير تصنع ولا تأنق [١] " .

---

(١) مقدمة حياتى ص ٦ ، ٧ .

وأحمد أمين ــ على ما قال ووضح ــ يعود إلى أيامه الماضية فيستبطنها ويكشف نفسه من خلالها ، ويقف على أيام طفولته وصباه ، كما يشرح بيئته ، ودخوله الكتاتيب بغرض حفظ القرآن الكريم .

وتحدث كذلك عن دخوله المدارس الابتدائية ، كما تناول الأيام التى قضاها بالأزهر ، وعرض للمصاعب والمعوقات التى كانت تواجهه كما تواجه غيره ، وأبان عن مشاعره تجاه والده الذى كان بمثابة أزهر آخر والذى كان يعكف على الشرح لابنه فى فترات الأجازات الصيفية .

وأشار الكاتب إلى أسرة أبيه الأسرة الفلاحة ، التى هى من بلدة " سمخراط " من أعماق البحيرة ، كما أشار إلى أسرة والدته التى هى من " تلا " من أعماق المنوفية ، ثم ذكر هجرتهما إلى حى من أحياء القاهرة بسبب الظلم أو لأسباب أخرى لم يذكرها .

ثم أشار إلى آلام أسرته لوفاة أخت له محروقة ، وكان ذلك وهو ما يزال حملا . يقول عن ذلك : " وكان ذلك وأنا حمل فى بطن أمى فتغذيت دما حزينا ورضعت بعد ولادتى لبنا حزينا ، واستقبلت عند ولادتى استقبالا حزينا ، فهل كان لذلك أثر فيما غلب على من الحزن فى حياتى فلا أفرح كما يفرح الناس ، ولا أبتهج بالحياة كما يبتهجون ؟ علم ذلك عند الله والراسخين فى العلم " . (١)

(١) حياتى ــ ص ١٩ .

وتحدث عن قصر نظره ، وعما لقيه من عناء حيال ذلـــك ، وأشار إلى أن هذا الذى أصيب به إنما كان السبب فى إيثاره للعزلة حتى لا يقع فى مثل هذه الأغلاط التى يقع فيهـــا أمثـــال هـــؤلاء ، ونظره مع قصره هذا كان سليما ، فقد احتمله على كثـــرة قراءتـــه ومداومته للنظر فى الكتب .

منذ ذلك الوقت تكونت معالم شخصيته ، وهى شخصية نشأت فى بيت تغمره النزعة الدينية . يقول : " فإن رأيت فى إفراطا فـــى جانب الجد وتفريطا معيبا فى جانب المرح ، أو رأيت صبرا علـــى العمل وجلدا فى تحمل المشقات ، واستجابة لعوامل الحزن أكثر من الاستجابة لعوامل السرور ، فاعلم أن ذلك كله صدى لتعاليم البيـــت ومبادئه .

وإن رأيت دينا يسكن فى أعماق قلبى وإيمانا بالله لا يزلزلـــه الفلسفة ولا تشككه فيه مطالعاتى فى كتب الملحدين ، أو رأيتنى أكثر من ذكر الموت وأخافه ، ولا أتطلع إلى ما يعده النـــاس مجـــدا ولا أحاول شهرة ، وأذكر فى أسعد الأوقات وأبهجها أن كل ذلـــك ظـــل زائل وعرض عارض ، أو رأيت بساطتى فى العيش وعدم احتفائى بمأكل أو مشرب أو ملـــبس ، وبســـاطتى فـــى حـــديثى وإلقـــائى ، وبساطتى فى أسلوبى وعدم تعمدى الزينة والزخرف فيه وكراهيتـــى

الشديدة لكل تكلف وتصنع فى أساليب الحياة ، فمرجعه إلى تعـــاليم أبى وما شاهدته فى بيتى " . (١)

وقد حفظ فى طفولته القرآن الكريم ، وتحدث عــن الكتـــاب الذى حفظ فيه آيات القرآن الكريم فقال : " كتاب يكاد يكــون علـــى باب حارتى ، هو حجرة متصلة بالمسجد ، وبجانبها دورة مياهــه ، وأثاث هذه الحجرة حصير كبير بال ، قد انسلت منه بعض عيدانه ، وزير فيه ماء يكاد يسود من الوسخ ، عليه غطاء من الخشب ، قــد ثبت فى الغطاء حبل طويل ربط فيه كوز ليســتقى منــه الشـــارب ويتناول الكوز ليشرب منه النظيف والقذر والمــريض والصـــحيح ، وصندوق صغير من صناديق الجاز وضعت فيــه ألـــواح بعضــــها صفيح قد صدئ وبعضها خشب قد زال طلاؤه ، وكتب عليها بعض آيات القرآن بالحبر الأسود فلا تكاد ترى ، وشيخ قد لبس العمامـــة وقباء من غير جبة وبيده عصا طويلة ، ومسمار كبير فـــى الحـــائط علقت فيه "الفلقة" وهى عصا غليظة تزيد قليلا عن المتر ، ثقب فيها ثقبان ثبت فيهما حبل ، فإذا أراد سيدنا ضرب ولد أدخلت رجلاه فى هذا الحبل ولويت عليهما الخشبة ، فلا تستطيع القدمان حركة " . (٢)

وقد صنع موازنة بين كتاتيب أيامه التى يحفظ الأطفال فيهـــا القرآن ويتعلمون القراءة والكتابة ، وبين ما عليه أطفال اليوم فقال :

---

(١) المصدر السابق ــ ص ٢٧ .

(٢) حياتى ــ ص ٤٥ .

أين ذلك مما نحن فيه الآن ، لأطفال فى مثل طبقتى ، إنهم يـذهبون إلى رياض الأطفال فتعلمهم سيدات مهذبات أو آنسات ظريفات ، يعلمن على أحدث طراز ، ويتدرجن بهم من اللعب إلى القراءة ، ويتحايلن على تشويق الطفل إلى الألف والباء ، ويسرقن التعليم عن طريق الصور أو القصص أو نحو ذلك ، ويقلبن ما كنا فيه من عيش جاف إلى حلوى ، وأكثر أوقات النهار مرح ولعب ، ودروس كأنها لعب ، وأناشيد ظريفة وموسيقى لطيفة ، وطبيب يزور المدرسة كل يوم ، ومريض لا يأتى إلى المدرسة إلا بعد أن يأتى بشهادة أنه صحيح ، والعلم يعطى كما يعطى كوب من الشربات وبسكويت ولبن وشاى بدل الفول النابت والمخلل ، وضرب على " البيان " بدل الضرب على الأبدان ، ونحو ذلك من ضروب النعيم . ولكن على كل حال أخشى أن نكون أفرطنا أيامى فى الخشونة وأفرطنا أيام أبنائى فى النعومة ، والحياة ليست جدا محضا ولا نعيما صرفا ولا شقاء صرفا ، وخير أنواع التعليم ما صور صنوف الحياة " . (١)

ويصاب أحمد أمين بمرض التيفود وذلك بعد أن نقل من الإسكندرية إلى القاهرة ، وعن هذه الصدمة يقول : " مرضت بحمى التيفود مرضا شديدا حتى أشرفت على الهلاك ، ولم يكن هناك عناية بالمرض كما يعنى اليوم ، ولا يرضى الأهالى عن إرسال المريض إلى مستشفى الحميات كما يرسل اليوم ولا عزل له عن سائر من فى

---

(١) حياتى ــ ص ٤٨ ، ٤٩ .

البيت حتى لا تنتشر العدوى ، ولا استدعاء طبيب مختص يشرف إشرافا دائما على العلاج — لا شئ من ذلك — ولكن فرشت لى حشية على الحصير ، فى وسط الغرفة وترك أمرى لله ، فلم يدع أهلى طبيبا ، وكل ما فى الأمر أن نفسى عافت الأكل . ومن حين لآخر تأتى عجائز الحارة فتصف لأمى وصفات بلدية للشفاء من المرض ، فأقبلها حينا وأرفضها أحيانا ، ويزورنى أبى قبل خروجه إلى عمله ، فيجلس على رأسى ، ويضع يده على جبهتى ، ويقرأ الفاتحة ، وآية الكرسى ، والمعوذتين ويختم ذلك بقوله : " حصنتك بالحى القيوم الذى لا يموت أبدا ، ودفعت عنك السوء بألف ألف لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . " ثم ينفث فى وجهى ، وإذا عاد من عمله فى المساء كرر هذا الدعاء . ونجوت منها بأعجوبة بعد أن كان الموت أقرب إلى من حبل الوريد ، ومكثت بعد ذلك مدة طويلة فى دور النقاهة " . (١)

كان يعيش فى بيت هادئ ، يخلو فى كل أوقاته من الضجيج ، وكان لحب والده للعزلة وعكوفه على القراءة أكثر وقته هو السبب فى خلو بيتهم من مرح الحياة ، وكان يعيش فى البيت معه أبواه وأخ وأخت يكبرانه ، وأخ وأخت يصغرانه .

يقول عن أخيه الأصغر : " كان أخى الأصغر شابا مرحا ذكيا مملوءا بالحياة ، كثيرا ما يثور على تقاليد البيت التى وضعها

---

(١) حياتى — ص ٩٢ ، ٩٣ .

أبى ، فهو يتأخر عن موعد العودة ، وهو يذاكر ويلعب ويجد ويهزل ، وكان ذلك يغيظ أبى فيكثر بينهما الجدال والخصام ويزداد ذلك فيصل إلى حد الضرب ــ علمه أبى كما علمنى ، والتحق بمدرسة تابعة للأوقاف تجمع فى تعليمها بين العلوم الدينية والمدنية ، ثم تخرج منها والتحق بمدرسة القضاء فى القسم الأول ، إذ كانت مدرسة القضاء تنقسم إلى قسمين ، فقسم أول ومدته خمس سنوات ، وقسم عال ومدته أربع سنوات ، وهذا الأخير هو الذى التحقت أنا به ، وكان أخى فى السادسة عشرة من عمره ، وقضى السنة الأولى فى الدراسة بنجاح . وتفوق فى الرياضة فنال جائزتها " .[١]

وقد حدث فى بيته حادث غير طعم الحياة ، فقد مرض أخوه الأصغر هذا وارتفعت حرارته ارتفاعا شديدا ، وكل من فى البيت قلق على هذا الشاب لقد أصيب بالحمى التيفودية تلك التى كان أحمد أمين قد أصيب بها ، لكن حالته كانت أخطر من أحمد ، واستدعوا له الطبيب ، ولكن المرض قد اشتد على أخيه الصغير ، ولم يغن الطبيب ولم يغن الدواء ، وأخيرا وبعد سوء حال لفظ أخوه أنفاسه ، وقامت قيامة البيت .

يصف أحمد أمين الحال بعد وفاة أخيه وكأنه يصف نمطا من أنماط حياة المصريين فيقول : " فأما أمى فتلطم وجهها حتى تسقط مغشيا عليها ، وأما أبى فيحترق قلبه فى الباطن ويتجلد فى الظاهر ،

---

(١) حياتى ــ ص ١٢٢ .

وتعد العدة لدفنه وتسير جنازته إلى الأمام حيث أعد أبـــى مدفنـــه ، ويرفض أن يقيم مأتما ، وأن يقابل أحدا ، فأقيم المأتم وأقابل النــــاس وينقلب بيتنا محزنة ، وكل خميس يجتمع النساء للعويل والصــــراخ وتدعى (المعددة) تغنى غناء حزينا بكلام يثير الشجون ، ويقطـــع القلوب ، فلما فرغت (خمساننا) التزمت أمى أن تذهب كل خميس إلى بيت مأتم ، تعرف أهله أو تعرفهم ، فكل المآتم ســواء ، وكـــل الحزانى أصدقاء ، وتنفرد بنفسها (فتعدد) كالمعددة ، وكل شـــىء يلهمها البكاء ، ـــ حجرته التى كان ينام فيها ، وأصدقاؤه الذين كان يلقاهم ، وكل شىء يذكرها بـــه موعد الأكل ، وموعد الخروج إلـــى المدرسة ، وموعد العودة منـــها ، فأما أبى فقد صبر علـــى حـــزن دفين ، حتى أبى إلا أن يغسله بيده ويدفنه بيده وكانت سلواه أن يكثر من تلاوة القرآن ويهب ما يقرؤه إلى روحه ، وسمع بكتاب للسيوطى " فضل الجلد عند فقد الولد " فنسخه بيده ، يتصبر بقراءته وكتابته .

وأما أنا فقد وضع هذا الحادث على عينى منظارا أسود ، فلا أرى فى الدنيا إلا السواد ، ولا أحب أن أسمع مـــن الأصـــوات إلا صوت البكاء ، فالشجرة الناضرة إلى ذبول ، والحياة المبتهجة إلـــى فناء ، والحمامة إذا غنت فإنما تبكى ، والسعيد إنما يسعد ليشـــقى ، وانقلبت فى عينى قيم الأشياء ، فهذا الذى يكسب المال لم يكســـبه ؟ وهذا الذى يعمل لم يعمل ؟ والناس مجانين إذا تخاصموا ، ومجانين إذا لهوا أو ضحكوا ، فالدنيا لا تزن جناح بعوضة وخير للنـــاس أن يقضوا حياتهم من غير اكتراث حتى يدركهم الموت ، واستولى هـــذا

الحزن على أسابيع بل أشهرا حتى سميت فى مدرستى (بمالك الحزين) فإذا نسيت الحزن بعض الوقت فى مدرستى ذكرته فى بيتى من منظر أمى ، ولا تسل عن موقف دقيق وقفته وحرت فى التصرف فيه ، فقد أتى موعد صرف مكافآت المسابقات فى المدرسة ، وكان أخى هذا الذى مات يستحق مكافأة الرياضة وهى لا تصرف إلا بإمضاء مستحقها فإذا لم يكن فإمضاء أبيه ، وأنا واثق أنى إذا أخبرت أبى فإنما أشعل فى قلبه نارا جديدة وأعيد عليه يوم مأتمه من جديد ، ففضلت أن أترك المكافأة وألا أخبر بها أبى " . (١)

وأحمد أمين بهذا يجيد تصوير البيت الذى كان يسكنه ، وكان حديثه فى كل ما مر حديث الواعى البصير ، فوصف كل هذه الأحوال وتلك الظروف وكأنه يعيشها من جديد ، أو كأنه يراها ويشاهدها .

ثم تضاعف حزن البيت ، وكثر همه حين أصيب أخوه الكبير بانفجار فى المخ نشأ عنه شلل فى النصف الأيسر ، وتبع ذلك كله وفاته ، وظلت الأسرة تعيش فى قلق لا يوصف وبكاء لا ينقطع وحزن يذكر بحزنهم على ابنهم الذى مات قبل . (٢)

وحين صدر مرسوم لتعيين أحمد أمين قاضيا ، كان المكان الذى عين فيه هو " الواحات الخارجية " وهو مكان بعيد يحتاج إلى

---

(١) حياتى ـــ ١٢٣ ـــ ١٢٥ .

(٢) حياتى ـــ ١٢٥ ـــ ١٢٧ .

سفر طويل وإلى غربة عن الأهل والأصحاب ، وسافر أحمد أمـــين إلى الواحات وقضى فيها مدة ثلاثة أشهر ، ودون أثناءها مــذكرات يومية نقلها بنصها في كتابه " حياتي " . (١)

وهذه اليوميات استمرت ثلاثة أشهر ، وكانت هــذه الأشـــهر الثلاثة تمثل فراغا كبيرا فـــي حيـــاة أحمـــد أمـــين ، لأن القضـــايا المعروضة في هذه المدة كانت قليلة جدا ، فلم تزد عن تسع قضـــايا وكانت جميعها من القضايا البسيطة التي لا تضيع الوقت ولا تحتاج إلى إعمال فكر .

يقول الكاتب : " فملأت فراغي بشيئين : الرحلات إلى الآثار الموجودة بالخارجة ، وقراءة الكتب . فأما شـــغفي بالآثـــار فكـــان عجيبا ، لأن الآثار الموجودة آثار قديمة وثقافتي فيهـــا محـــدودة أو معدومة ، وربما كان السبب في شغفي بها ما تولد عندي من حـــب الآثار والإعجاب بها يوم كنت أزور الآثار الإسلامية مـــع صـــديقي أحمد بك أمين ، وقد كنت في كثير من الأحيان أصحب مفتش الآثار ليدلني إلى بمعلوماته عنها ، وقد كنت أدون يومياتي وأصف كل أثر رأيته وما تركه في نفس مـــن أثر ، وكانت هـــذه الآثـــار بعضـــها فارسية من عهد احتلال الفرس لمصر ، وبعضها من آثـــار قـــدماء المصريين ، وبعضها رومانية ، وبعضها مقابر مســـيحية لا تـــزال تحتفظ بجثث الموتى وأكفانها ، بل لا يزال بعضها محتفظـــا بشـــعر

---

(١) حياتي ــ ١٣٥ ــ ١٤٥ .

الرأس والذقن من جودة التحنيط ، وبعضها أسود الوجه غائر الجبهة بارز الأسنان . وبعضها ــ وهو الأكثر ــ أبيض الوجه منفرج زاوية الوجه " .(١)

ثم يتحدث عن السيدة الإنجليزية (مس بور) تلك التى كان لها فى نفس أحمد أمين وعقله أكبر الأثر ، ودرس على يديها اللغة الإنجليزية ، ودرس على يديها أيضا الجزء الثالث من كتب (بيرليتز) وكتبا أخرى فى الأخلاق والاجتماع ، كما قرأ معها فصولا من جمهورية أفلاطون الإنجليزية ، وظل أحمد أمين يلازم هذه السيدة لمدة أربع سنوات ، واستفاد كثيرا من عقلها ومن كثرة تجاربها .

وهكذا يسير الكتاب (حياتى) فيصور حياة أحمد أمين طفلا وشابا ، حياة ملئت بالكد الدائب والسعى المتواصل فى طلب العلم ، فقل أن يفارقه الكتاب ، ورزقه كان فى كل أطوار حياته متصلا بعلمه من درس يدرسه أو كتاب يصححه أو نحو ذلك ، لا يمنعه عن ذلك مرضه ولا قصر نظره الذى لازمه منذ طفولته ، ولقد من الله عليه بالتوفيق فى كل أعماله التى أسندت إليه سواء فى التدريس أو فى القضاء أو فى لجنة التأليف أو فى الجامعة الشعبية ، أو فى عمادة كلية الآداب .

---

(١) حياتى ــ ص ١٤٦ ــ ١٤٧ .

وقد نعته كثير من أعلام العصر نعتا يعد شاهدا على أثره في الحياة العقلية والعملية [١] .

يقول الدكتور طه حسين : " لقد أهدى أحمد أمين إلى العالم الحديث بتأليف (فجر الإسلام وضحاه وظهره) كنزا من أقوم الكنوز حفظا من الفني وأقدرها على البقاء ومطاولة الزمان والأحداث..

ويقول الأمير مصطفى الشهابي : " إن السلسلة الرائعة من تاريخ الأدب العربي التي تبدأ بفجر الإسلام وتنتقل إلى ضحى الإسلام فإلى ظهر الإسلام ، كنوز من المعرفة كتبت بأسهل لسان ، ونقلت من أصح مصادر ، واشتملت على أدق الآراء العلمية .

يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات : " حسب أحمد أمين أنه حلل الحياة العقلية للعرب والمسلمين في كتبه : فجر الإسلام وضحاه وظهره ، تحليلا لم يتهيأ لأحد من قبله ...".

ويقول الأستاذ محمود تيمور : " اقرأ كتاب فجر الإسلام وصنويه الضحى والظهر تلمح خلف مظاهر البحث والدرس لوامع الروح الأصلية التي تميط الغبار عن معالم الفكر العربي وتريك الضوء من مصابيحه . "

(١) حياتي ــ ص ٣٦١ وما بعدها .

الفصل الخامس

بين البحوث المنهجية وفن المقالة

مدخل

اتضح من الفصول السابقة أن المقالة العربية تكاد تحتل مقام السيادة على سائر الفنون النثرية الأخرى من خطبة ، أو قصيـــة ، أو رسالة ، أو مسرحية ، أو غير ذلك ، لسبب جوهرى وهو أننـــا لـــو استعرضنا الألوان المقالية ، ونظرنا ما تتميز به مـــن مسمات فـــى طبيعتها لوجدناها تخولها هذه المكانة ، فجوهر المقالة يقـــوم علـــى فكرة ما تشغل ذهن الكاتب ، وتدور هذه الفكرة فى ذهنه مفصلة عن غيرها ، مرسومة الحدود ، موضحة المعالم ، وأخيرا يقوم الكاتـــب بتسجيلها كتابة فى الصور الملائمـــة ، ويأخـــذ يدعمها بـــالحجج والبراهين ، وبما يؤيد رأيه ويتفق مع مذهبه ، حتى إذا ما انتهى من توفيتها حقها ختمها بالخاتمة التى تناسب .

فالمقالة إذن مطية ذلول للأغراض ، والاتجاهات والمذاهب ، وهى الأداة المناسبة لتلك الأصوات والميول الكثيرة التى تملأ الساحة العربية ، ولا أدل على رسوخ تلك الحقيقة من النظـــر فـــى النتـــاج النثرى ـــ على اختلاف فنونـــه ـــ أو علـــى البحـــوث والدراســـات المنهجية ، فإن كل واحدة من هذه تعلن أن وراءها أديبا يدرك قيمـــة

المقالة وحقيقتها وأهميتها ، ويدرك صلتها بالغايات التى يقصدها والتى وقف نفسه على تجليتها والدفاع عنها .

وخلاصة القول أن فن المقالة قد استطاع أن يؤدى رسالة ، وأن يقدم نفعا كثيرا ، لذا راجت سوق الكتابة ، وتركت أثرا فى المجتمع والحياة ، ودفعت بكثير من العلوم والفنون — وعلى وجه الخصوص الأدب — إلى الدقة والتركيز ، واستقامة العبارة ، حتى نسجت من ثم أبحاث عامة لكل الأدباء ، متنوعة الأساليب ، متفاوتة فى طرائق التعبير .

وأبرز مثال على ذلك الكتب التى كانت فى الأصل مقالات والتى صال فيها وجال أصحابها [١] ، لقد كشفت عن مدى إدراكهم للحياة العامة بمؤثراتها ، كما كشفت عن مدى إدراكهم للاتجاهات الفنية التى سلكها الأدباء على اختلافهم ، وما كان بينهم من فروق إبداعية ، وليس من شك فى أن بعض هذه الكتب كانت تعد تجديدا فى الدراسات الأدبية ، وعملا جديدا فى التأليف الأدبى .

وهذه هى أهم المحاور التى دارت فيها البحوث والدراسات المقالية :

(١) قضايا الأدب والنقد:

إن نظرة شاملة إلى مجموع ما ألف من كتب مقالية توحى إلينا بأن معظم الجهد يكاد ينحصر فى المرتبة الأولى فى الأدب

[illegible]

والنقد بمعناهما الواسع العريض ، ويخيل إلينا أن انحصار الجهود على هذا المحور يبرز فكرة شبه واضحة عن المعارك الأدبية التى سادت العصر ، ويبرز كذلك صورة من صور التباين والاختلاف التى كان يسلكها المؤلفون والدارسون ، إن فى الاتجاهات ، أو فى المناهج والطرق ، على أن دراسة هذا المحور قد تنطبق كل الانطباق أو بعضه على الفنون الأخرى ، وتمكن من قياس الأمور بنظائرها ، وتسمح بتكوين فكرة عامة عن هذه المؤلفات وقيمتها (١).

لقد انطلق الكتاب فى هذه المقالات التى ألفت كتبا يسجلون فيها أروع الصفحات ، وأبلغها فى الأدب والنقد ، والثقافة ، تدفعهم فى ذلك غايات حميدة ، وإنتاج فنى رائع فى مختلف فنون الأدب .

إن معظم الناس لا يقبلون على قراءة ما تذيعه الصحف وتنشره المجلات ، وكأنهم يلزمون الكتاب أن يجمعوا ما نشر مفرقا ، حتى تشعر الأجيال الناشئة بوجوده ، لدرجة أن شهدت هذه الفترة ظهور كتب جديدة تنسب لكبار الأدباء كانت فى أصلها مقالات ، وأخذت هذه الكتب تتداول فى مجتمعات المثقفين فى كل أنحاء العالم العربى .

ولكى نكون على بينة من هذه الكتب لا بد من التعرف على بعضها ، والإشارة إليها ، ومن أشهرها :

---

(١) انظر : المقال وتطوره فى الأدب المعاصر ، د / السيد مرسى أبو ذكرى .

١ – النظرات ، لمصطفى لطفى المنفلوطى .
٢ – زكى مبارك ناقدا ، مقالات لزكى مبارك .
٣ – ثورة الأدب ، لمحمد حسين هيكل .
٤ – فى أوقات الفراغ ، لمحمد حسين هيكل .
٥ – تراجم مصرية وغربية ، لمحمد حسين هيكل .
٦ – حديث الأربعاء ، لطه حسين .
٧ – حافظ وشوقى ، لطه حسين .
٨ – فصول فى الأدب والنقد ، لطه حسين .
٩ – وحى القلم ، للرافعى .
١٠ – على السفود ، للرافعى .
١١ – فى المرآة ، عبد العزيز البشرى .
١٢ – المختار ، عبد العزيز البشرى .
١٣ – ساعات بين الكتب ، للعقاد .
١٤ – مطالعات فى الكتب والحياة للعقاد .
١٥ – شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ، للعقاد .
١٦ – اليوميات ، للعقاد .
١٧ – وحى الرسالة ، أحمد حسن الزيات .
١٨ – حصاد الهشيم ، للمازنى .
١٩ – فى الميزان الجديد ، لمحمد مندور .

وهذه هى أهم المحاور اللغوية والأدبية التى فرضت نفسها على كتاب هذه الكتب المقالية :

(أ) الدعوات الإصلاحية .

(ب) الاتجاهات الفنية المتعددة .

(ج) الأدب العربى لماذا ؟

(د) الغزو الفكرى .

(هـ) الدعوات العصرية .

(و) تفسير العمل الأدبى .

(ز) آراء فى شعراء العصر .

(ح) الإبداع النثرى .

(ط) القضايا النقدية .

(ى) دراسة الشخصيات .

(ك) التعريف بالكتب .

(ل) طرح القضايا الأدبية .

(٢) القضايا الاجتماعية والسياسية:

تضاف إلى المحاور السابقة محاور أخرى اجتماعية وسياسية ، وكلها محاور يعمد الكاتب فيها إلى إثارة العواطف ، وتبصير الجمهور بما يحيط بالبلاد من مخاطر قد تكون خارجية ، وقد تكون داخلية .

ودور الكتاب فى إبراز هذه المحاور يقوم على الملاحظة الدقيقة ، والعمق والتأمل ، والبراعة فى التهكم والسخرية من الأشياء المرفوضة التى تضر بالمجتمع .

وهذه هى أهم المحاور الاجتماعية والسياسية :

(أ) المشاكل الاجتماعية .

(ب) المشاكل الحزبية .

(ج) الأفكار السياسية والوطنية .

(د) التربية والتهذيب .

(هـ) تحرير المرأة .

(و) نظرات فى الحياة .

(ز) أحوال المجتمع .

ومن أشهر الكتاب الذين تناولوا هذه المحاور: جمال الدين الأفغانى ، وعبد الرحمن الكواكبى ، وقاسم أمين ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، والشيخ على يوسف ، ومصطفى كامل ، وغيرهم .

(٣) المسائل الدينية:

وهناك محاور أخرى غاية فى الأهمية وهى المحاور الدينية ، وقد فرضت هذه المحاور الظروف والمؤثرات الخارجية التى تعرض لها العالم العربى فى العصر الحديث ، فعلى الرغم من أن اليقظة الفكرية والثقافية أخذت تسرى فى أرجاء العالم الإسلامى — ومنه العالم العربى — نحن نجد ضغطا خارجيا يتمثل فى الاستعمار والتبشير ، وغير ذلك من الدعوات العصرية ، وكلها تفرض على كتاب العالم الإسلامى أن يهبوا للدفاع عن الإسلام ، والذود عن

حياضه ، وملاحقة كل أولئك الذين يريدون تشويه صورة الإسلام ، أو يشهرون التشكيك والحملات التبشيرية [١] .

والنتيجة الطبيعية والمنطقية لكل هذه الظروف والمؤثرات أن تفاعل رد الفعل فى النفوس والأذهان ، وصارت له آثاره البعيدة على الفكر والنشاط الثقافى والدينى ، وراحت نوعية الاتجاهات الأدبية كلها ـ ومنها المقالة ـ تتأثر ، وصار كل أديب على وعى تام ، وفهم راشد لوظيفة الأدب وأثره فى مسار الأمة .

أما أهم المحاور الدينية فكانت تدور حول [٣] :

(أ) المناسبات الإسلامية .

(ب) المقتضى الإسلامى .

(ج) مواجهة حرب القيم الإسلامية .

(د) الروح الإسلامية .

(هـ) السيرة النبوية .

(و) الإصلاح الدينى .

(ز) الدفاع عن الإسلام .

(ح) عالمية الإسلام .

(ط) مستقبل الإسلام .

(ى) لماذا تأخر المسلمون ؟

---

(١) انظر : المقالة فى أدب العقاد ، د / عبد القادر رزق الطويل ، ص ٩٥ وما بعدها .

(٢) انظر : المصدر نفسه : ص ١٠٨ وما بعدها .

ومن أشهر الكتاب الذين عالجوا هذه الهموم : مصطفى صادق الرافعى ، وطه حسين ، والعقاد ، وشكيب أرسلان ، ومحمد حسين هيكل ، وعبد العزيز البشرى ، وأحمد حسن الزيات ، وأحمد أمين ، وغيرهم .

إن المحاور الدينية فى البحوث والدراسات المقالية للأستاذ أحمد أمين مثلا فوق أن تحصر ، وهى بمجموعها تعطى تصورا قويا وصحيحا عن الإسلام فى حقيقته ، وانظر إن شئت كتاب الدكتور / رجب البيومى : (أحمد أمين مؤرخ الفكر الإسلامى) [١] لترى كيف كانت آراء الرجل فى : أسباب تأخر المسلمين ، ووسائل ارتقاء الأمة الإسلامية ، والإلحاد وأسبابه ، وأثر الدين فى الحياة ، وتحذيره من المدارس التبشيرية ، ودعوته إلى الاجتهاد فى التشريع [٢] .

---

(١) دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م .

(٢) انظر المصدر نفسه ص ٢٥ وما بعدها .

ابن حسين [1] :

ولد ابن حسين عام ١٣٥٢ هـ ، وبزغ فجره فى بيت علم له شأنه فى الإرشاد والتوجيه ، وفى كنف أسرة تشتهر بالصلاح والتقوى ، ومن هنا كان حبه للعلم والعلماء ، وكان كل ما فى حياته سيرة طالب علم .

التحق بحلقات العلم بالرياض ، ولازم أشهر علمائها ، وأتم دراسته فى المعهد العلمى بها ، ثم فى كلية اللغة العربية ، وذلك من عام ١٣٧٣ هـ حتى عام ١٣٧٨ هـ ، ثم عمل فى المعهد العلمى ومن بعده فى كلية اللغة العربية ، ثم سافر إلى مصر والتحق بالدراسات العليا فى كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، وهو الآن يعمل أستاذا متفرغا للدراسات العليا فى كلية اللغة العربية ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فى الرياض .

وها هو ابن حسين ما يزال على قيد الحياة تتفتح أمامه آفاق الأدب والشعر ، وتفتح له وسائل الإعلام – من صحف ومجلات وإذاعة وتلفاز وغيرها – أبوابها لينشر كل مايعن له فى مناسبات ، وفى غير مناسبات .

---

(١) انظر للمؤلف : ابن حسين بين التراث والمعاصرة ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .

كتاباته النثرية:

لم يكن نثر ابن حسين موضع اهتمام من الدارسين الـذين كتبوا عنه ، وإذا تناولنا ما وصل إلينا من شواهد نثره لتأكد لنا أنـه ذو موهبة نثرية ، وأن براعته فى نثره لا تقل درجة عن براعته فى شعره .

ويمكن تقسيم نثره إلى : (مقـدمات لمؤلفاتـه ودراسـاته ، والمذكرات والذكريات ، والمقالات ، وشرح القصائد ، والمراسلات ، والقصة) لكنه لا يزال بحرا متلاحق الأمواج فى كتابة المقالة بكل فنونها ، ومن يطالع صحف ومجلات الجزيرة العربية بصفة عامـة والمملكة العربية السعودية بصفة خاصة يـراه يبـدع العديـد مـن المقالات التى يصعب حصرها ، كما يرى أن موضوعاتها كلها تدور حول شتى أمور الحياة من عقيدة إسلامية ، وأدب ، واجتماع ، ونقد ، وغير ذلك .

والواقع أنه مع ما بين مقالات ابن حسين من تداخل فإننا نرى أن أهم ما كتبه فى هذا اللون ينقسم إلى ما يأتى :

المقالة الذاتية :

وهى الألوان المقالية التى اهتم فيها بالتصـوير والوصـف ، وغايته فى هذا اللون المقالى هو تصوير البيئة المكانية التى يعـيش فيها كما تتراءى له كأديب دقيق الملاحظة عميق الإحساس .

وله مقالات وجدانية أخرجها فى صور ولوحات رائعة ، وهو فيها يصطحبنا إلى أعماق نفسه وما يضطرب فيهـا مـن انفعـال ،

وكأنه أراد أن يقدم لنا صورة من إحساساته ووجدانه ، وكل هذه المقالات تعتمد على قوة العاطفة الوجدانية ، كما تعتمد على وضوح الأفكار والتعبيرات ، ساعد على ذلك حسن اختياره للكلمات ، وبراعته فى وضعها فى المكان اللائق بها .

المقالة الموضوعية :

وهى تلك التى كان يهتم فيها بنشر أفكاره ونظرياته فى الأدب والنقد ، وما إلى ذلك من أهداف وغايات متعددة ، وهذا اللون يتوزع عنده إلى الموضوعات التالية : (المقتضى الإسلامى ، والتأمل الفكري ، والتعريف بالكتب ، ودراسة الشخصيات ، والبحوث العلمية ، وطرح القضايا الأدبية) .

وهناك مقالات لا حصر لها كتبها ابن حسين حول القضايا الأدبية ، والقيم الفنية المختلفة فى سائر الأعمال الأدبية ، وقد يعمد فى مثل هذه المقالات إلى الموازنة بين أديب وآخر ، أو الموازنة بين عمل أدبى وعمل أدبى آخر من جنسه ، ليستبين فضل أحدهما على الآخر فى النواحى الموضوعية ، والقيم الفنية المختلفة ، ومن ثم يكون حكمه على الأدب من جهة ، وعلى الأديب بالأصالة أو بالتقليد من جهة أخرى .

ومما كتبه فى مقدمة ديوانه (أصداء وأنداء) يعـرف فيـه بشعره وطبيعته ، ويكشف عن مذهبه فى الشعر ، ورأيه بين الشعر والنثر ، يقول (١) :

" ... أما عن الشعر نفسه فيكفيك أنك تعلم أنه صورة إحساس شاعر وقبس شعوره ، ونخالة فكره ، وخلاصـة تفكيـره أودعـه نبضات قلبه ، واستودعه خياله وإلهامه ، فى قالـب اختـاره لفنـه وارتضاه له ، قد يوافقه عليه الآخرون وقد يخالفونـه ، ولكنـه بـه راض على أى حال ، وطبيعى ألا يفصل فيه القالب عن المحتـوى وذلك ما لا جدال فيه .

وإنما حصل الخلاف عند المتأخرين على نوع الشكل وأسلوب تشكيله ، وهذه مسألة فرغنا من الحديث فيها فى غير هذا المقام .

على أنى أذكر بأن الشعر شىء والنثر شىء آخر ، ولا مجال للخلط بينهما إلا عند غير المحققين الذين يريدون أن يجعلـوا مـن الشمس قمرا ومن القمر شمسا ، ولله فى خلقـه شـئون ، علـى أن للشعر العربى طبيعة متميزة وكيان متميز أيضا ، وإنما يحس ذلـك ويعرفه أولئك الذين تجردوا من الهوى النفسى ، وقويـت صـلتهم بتراث الأسلاف ، وما مر به فى حيـاته الطويـلة من تغييـر أو ثبات ... " .

---

(١) أصداء وأنداء ص ٦ ، مطابع الفرزدق التجارية ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

ومن يقرأ هذه المقدمة جميعها يحس أنها إضاءة جيدة تعين القارئ والناقد على السواء فى قراءة الأشعار وفى تفسير كثير من الجوانب الأخرى المهمة ، كما تظهر هذه المقدمة ثقافة ابن حسين الأدبية والنقدية ، وتظهر كذلك تواضعه ولينه كعالم ، وكيف أنه كان يعتمد فى كل ما يصدر عنه على أنه وجهة نظر قابلة للأخذ والرد .

وفى تقديمه لكتاب (أدب عبد العزيز الرفاعى دراسة موضوعية وفنية – لإبراهيم بن محمد الشتوى) نراه يعلل للاهتمام بأدب الرفاعى فيقول (١) :

"فإن خدمة أى واحد من هذه الأمة تحمل ضمنا خدمة فكر هذه الأمة عن طريق اشتمالها على الإشارات والإيحاءات المباشرة وغير المباشرة ، وذلك لكون الأديب واحدا من هذه الجماعة التى تربطه بها روابط غير محدودة ، فتجعل مشكلاتها مشكلاته .

ومن هذا المنطلق تأتى دراسته أدب الرفاعى الذى حمل كثيرا جدا من خصائص هذه الأمة ، وكثيرا جدا من منطلقات مكوناتها التاريخية والفكرية والأدبية والاجتماعية بوجه عام ، وبخاصة أن الرفاعى لم يكن شخصا عاديا بل ولا مثقفا عاديا ، وإنما كان أنموذجا متميزا ، تلمس هذا التميز منبثا فى تضاعيف أدبه الذى شمل هذا البحث كثيرا منه على نحو لا يحوجك الوصول إليه إلى

---

(١) أدب عبد العزيز الرفاعى دراسة موضوعية وفنية ، إبراهيم بن محمد الشتوي ص ٩ . دار الرفاعى للنشر والطباعة والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٩م .

مزيد من تأمل ، ومزيد من التفكير ، وتلك سمة أعلام الأصلاء من أهل الفكر والإبداع في كل ميدان من ميادين الحياة الرحبة " .

ومن ذكرياته عن الكتاب وصلته به نراه يقول [١] :

" وحين ألقى على هذا السؤال : كيف أنت والكتاب ؟ أخذت الذكريات تتداعى : ما الكتب التى قرأتها ؟ وما الذى استفدته منها ؟ وهل احتفظت بها على حالها أم أن كثيرا منها قد فقد ؟ وكيف كان ذلك ؟ ومتى بدأت صلتى بالكتاب ؟ وما آثرها عندى ؟ وكيف كان تعاملى مع الكتاب شراء وقراءة وصيانة وتأليفا ؟ .

كل ذلك وأكثر منه ورد على ذهنى عندما ألقى على هذا السؤال ، فلقد تذكرت تلك الأيام التى كنت فيها أقضى وقتا ليس باليسير فى تقليب كتب أبى وعمى فأصفها حسب مقاساتها ، وأتمنى لو عرفت كل ما اشتملت عليه ، وما أكثر ما مررت أصابعى على حروفها حيث كانت تأتى شبه بارزة فى الطباعة القديمة ، حتى إنى كنت أميز بعض الحروف فى كثير منها ، ولكن هل كان فى مقدورى قراءتها ؟ إن ذلك كان مستحيلا كل الاستحالة ، ومع ذلك اتصلت صحبتى لها أقضى معها أحلى الساعات حتى صرت أعرف هذا من ذاك ، بل إنى كنت أميز أجزاء الكتاب الواحد بعضها من بعض ، وما أزال أذكر كثيرا من سماتها " .

---

(١) مجلة الحرس الوطنى (السعودية) العدد ٢٠١ ـ السنة العشرون ـ ذو الحجة ١٤١٩ هـ ـ مارس ١٩٩٩م ص ٨٤ ، ٨٥ .

أما عن المقالة الدينية عند ابن حسين فيمكن القول إنه كانت له اهتمامات مبكرة في حقول الدعوة الإسلامية ، لقد أفاد من الجو الإسلامي الذي تعيشه المملكة ، وتوثقت بينه وبين مشائخه الروابط منذ بدايات تلمذته الأولى ؛ كل ما في الأمر أن هذه المقالة إنما تأتي في الوقت الحالي — من حيث الكم والكيف — بعد كتاباته الأدبية والنقدية .

يقول بعنوان " مظهر آخر من الحرب ضد الإسلام " (١) .

" إذا كانت محاربة الإسلام هي الهدف الأول للحملات التنصيرية ؛ لكونه — كما يرون — العدو الأول لهم ، فإن جماعات من المستشرقين قد فتحوا جبهة أخرى في الحرب ضد الإسلام ، وهي حرب ضد الكتاب العزيز ، والحديث الشريف ، ومحمد — عليه الصلاة والسلام — وتراث الأمة الإسلامية .

ولم تكن جديدة في حقيقتها وواقعها ، ولكنهم جدوا فيها في العصر الحديث ، وهي محاربة اللغة العربية الفصحى ، لغة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وتراث الأمة الإسلامية ، وإحدى الروابط الوثيقة التي تلتقي عليها الأمة .

وهم في حربهم اللغة العربية كانوا يعملون على نجاح واحد من أمرين :

---

(١) الرسالة والرسول : ابن حسين ص ٩٩ ، ١٠٠ . مطابع الفرزدق التجارية ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م . دار عبد العزيز آل حسين للنشر والتوزيع .

أولهما : أن تحل اللغة الإنجليزية أو الفرنسية محل اللغة العربيـــة
فإن لم يكن ذلك فالأمر الثانى :
وهو إحلال العامية محل اللغة العربية الفصحى ، وغرضهم من ذلك يمكن تلخيصه فى ثلاثة أهداف :
الأول : محاربة الإسلام .
والثانى : تمزيق أمة القرآن .
والثالث : فرض اللغة الإنجليزية ، أو الفرنسية ، وثقافتهمـــا علـــى الأمة العربية لتصبح بلادنا جزءا من بلادهم ، أو على الأقل تصـــير الأمة العربية من البلدان الناطقة بالإنجليزية أو الفرنسية .

وآثار تلك الحرب الفكرية والثقافية لا تزال مشهودة فى بعض البلدان العربية التى منيت بالاستعمار الإنجليزى أو الفرنسى .

وكان طبيعيا بالنسبة لدعوتهم أن تكون محاربة القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وتراث الأمة جزء من عملهم . . ولما كنت قد تحدثت عن ذلك فى بعض مما ألفت لـــم أر من المناسب إعادة الحديث عن هذه الموضوعات فى بحث أردته مختصرا " .

الفصل السادس

فن المقالة والخصائص العامة

دراسة فنية و موازنة

تلك هى الأنواع التى كانت تنتظم المقالات ، بقى علينا إذن أن نعرف المقومات والخصائص الفنية للمقالة ، لأن المقال – أى مقال – ليس حشدا من المعلومات ، وليس كل هدفه أن ينقل المعرفة بل لا بد إلى جانب ذلك أن يكون مشوقا ، ولا يكون المقال كذلك حتى يعطينا من شخصية الكاتب بمقدار ما يعطينا من الموضوع ذاته ، فشخصية الكاتب لا بد أن تبرز فى مقاله لا فى أسلوبه فحسب بل فى طريقة تناوله للموضوع وعرضه إياه ، ثم فى العنصر الذاتى الذى يضيفه الكاتب من خبرته الشخصية وممارسته للحياة العامة [1] .

السمات العامة :

وهذه بعض المقومات العامة التى ينبغى أن تتوفر فى كل نوع من أنواع المقال :

١ – لابد أن يكون المقال قصيرا ، ومن ثم فيجب البعد عن المقدمات والأخذ فى عرض الفكرة مباشرة .

---

(١) الأدب وفنونه ، د / عز الدين إسماعيل ص ٢٨٩ .

٢ – تحديد موضوع المقالة ، وتشخيص الفكرة المعروضة وتجليتها بألفاظ واضحة وأسلوب مرسل يفهمه القارئ ، لأن المقالة قضايا عامة تتصل بالفكر وبالأدب ، كما تتصل بالحياة ، وهذه أمور يخاطب بها العامة كما يخاطب بها الخاصة .

٣ – الأخذ برح القصة القصيرة فى القصر من ناحية وفى قوة الربط من ناحية أخرى ، ثم فى إظهار عنصر التشويق من ناحية ثالثة ، لأن الكاتب يعرض فى مقاله ثقافته الشخصية وتجاربه فى الحياة ، فلا بد وأن يختار لمقاله منهجا فنيا يعرف به .

٤ – التزام الألفاظ والأساليب العربية ، لأن الالتزام بذلك هو الذى يجعل لمقالة الكاتب قيمة ، وإن كان كثير من الكتاب الكبار يستطيعون بفضل عبقريتهم أن يخلقوا من المادة البسيطة ومن التراكيب العامة مقالا أدبيا ممتازا .

٥ – وإذا كان من المتعارف أن الهدف من المقال هو إيصال فكرة محددة إلى المتلقى غالبا ، إلا أنه ينبغى أن يكون لكل نوع من المقال أسلوبه المتميز ، فالمقال السياسى مثلا يجب أن تتوفر فيه الأناقة والبساطة والصراحة ، والمقال الاجتماعى يحتاج إلى الصدق فى العاطفة ، والدقة فى التصوير ، والسلاسة فى التعبير ، وإقامة البراهين والأدلةعلى الفكرة التى يريد الكاتب إيصالها ، وفى كل هذا ينبغى أن تبرز شخصية الكاتب من خلال عرضه لأسلوبه وطرحه لفكرته . وإذا كان هذا مهما فى المقالات ذات الصبغة الموضوعية

التي تتصل والتاريخ والحقائق العلمية فإنه أشد أهمية فى المقـالات التي تكون موضوعاتها ذاتية .

هذه هى الخصائص العامة لفن المقالة التى يـدركها القـارئ لأول وهلة تقريبا ، وليس يخفى أن هناك خصائص أخـرى دقيقـة ترتبط بطبيعة كل كاتب ، وبطبيعة الموضع المتناول ، مثـل قـول الدكتور / عبد القادر رزق الطويل فى الخصـائص الفكريـة لأدب المقال عند العقاد [١] :

" – مقال العقاد فى كل أغراضه حافل بالفكر ، ملئ بالمعانى الشرقى منها والغربى ...

– اعتداده بمذهب الحرية ، والحفاظ على كرامة الإنسان ..

– عمق الفكرة ، مع قدرة كبيـرة علـى التحليـل والتعليـل واستيعاب جوانب الفكرة .. "

هيكل المقالـــة(الخطة) :

تطلق المقـالة على الموضـوع المكتـوب الـذى يوضـح فكرة ما [٢] ، تدور حولها مجموعة من المعانى التى يقصدها الكاتب ويفصلها عن غيرها ، ويرسم حدودها ومعالمها ، وقد تطلـق علـى قضية علمية أو اقتصادية أو اجتماعية تشـغل الكاتـب فيشـرحها

---

(١) المقالة فى أدب العقاد ، ص ٢٩٢ وما بعدها .

(٢) الفكرة هى مضمون القالب .

ويعرضها فى الصورة الملائمة [١] ، مؤيدا عرضه بالحجج والبراهين حتى إذا انتهى من العرض كانت الخاتمة .

ومن هنا ينبغى أن نذكر أن خطة المقال هى تصميمه وهيكله العام الذى يؤدى من خلاله مضمون المقال [٢] ، وهذه الخطة تقوم على عناصر ثلاثة :

أولا : المقدمة :

والمقدمة بمثابة تمهيد يدخل من خلاله الكاتب إلى صلب المقال ، ومن ثم ينبغى أن تكون مدخلا طبيعيا يهيئ القارئ لتلقى المقال حتى تتم الغاية المرجوة ، ولذلك تقوم المقدمة غالبا على مسلمات لا تحتمل المناقشة أو الجدال ، وهذه المسلمات والمعارف تتصل بالموضوع غاية الاتصال .

وإذا كان المقال ككل يتجنب الطول الممل فينبغى أن تكون المقدمة قصيرة حتى يتم عرض الفكرة مباشرة والانتهاء إلى الغاية المقصودة .

---

(١) أى القالب ، والقالب هو تصميم المقالة ، وهو الهيكل العام الذى تؤدى من خلاله الأفكار والمعانى .

(٢) انظر فى ذلك : المقال وتطوره فى الأدب المعاصر ، د / السيد مرسى أبو ذكرى ص [illegible] وما بعدها

ثانيـــا : العرض(صلب الموضوع) :

والعرض هو النقطة الرئيسية أو النقاط التـــى تشـــغل ذهـــن الكاتب ، ويقوم بعرضها وبرسم حدودها ، ويمهد لها قبل عرضـــها بالمقدمة المناسبة ، ويسوق خلال عرضـــها الحجـــج والبـــراهين ، ويكون العرض منطقيا إذا كانت القضايا مرتبة متواصـــلة ، بحيـــث تكون كل قضية نتيجة لما قبلها مقدمة لما بعدها ، وبحيث يتقدم الأهم على المهم ، حتى تسلم إلى الختام المناسب وتكون النتيجة والغاية .

وبراعة كاتب على آخر تعتمد على حسن عرض الموضوع ، وعلى الأسلوب الذى اتبعه فى هذا العرض ، وفى قدرته على تحليل الحوادث وتفسير ظواهرها ، وردها إلى أسبابها الحقيقية ، اجتماعية كانت أم سياسية أم دينية ، فإذا تحقق ذلك أمكن أن ننتقل إلى الخاتمة لأنها نهاية المطاف وهى ثمرة المقال .

ثالثا : الختـــــام:

وهو النتيجة الطبيعية التى تكون للمقدمة والعـــرض ، وفـــى الخاتمة يعمد الكاتب إلى الوضوح والصـــراحة لـــيلخص العناصـــر الرئيسية المراد إثباتها ، وهذه النتائج طبيعية تدل على اقتناع ويقين، وهى لا تحتاج إلى شىء آخر يقويها أو يثبتها لم يرد فى المقال .

وإذا ما نظرنا بعين التطبيق إلى مقالة الأستاذ أحمد أمـــين [(١)] " أكاذيب المدنية " لنتبين عليها خطة المقالة وعلام تقوم ؟ فإننا نرى المقدمة التى تكشف عن الجانب المـــادى والجانـــب الروحـــى فـــى المدنية ، وتلا ذلك صلب الموضوع ، وقد أخذ الكاتب يؤيد بالأدلـــة والبراهين ما أبداه من رأى فى هذا الموضوع ، وانتهى به الأمر إلى أن المدنية تعتمد على الجانب المادى وتفتقد الجانب الروحى .

ثم يأتى إلى الخاتمة فيدعو إلى أن تكون الإنسانية هى العالم الذى يكتنف كل الناس ويظلهم ويخضع له كل ما فى الحياة ، وحينئذ يسلم الناس من خداع المدنية ويعيشون فى سعادة الإنسانية .

وهذه المقالة تمتاز بالهدوء وبالاعتماد على الإقنـــاع ، وهـــى مليئة بالأفكار الوفيرة ، وقد ساعد الكاتب على ذلك ما لديه من ثقافة واسعة .

موازنة بين الألوان المقالية :

لسنا نريد بالموازنة تلك التى يمكن أن ينتظرهـــا القـــارئ ، وهى الموازنة بين أنواع المقالات عامة ، لأن ذلـــك أمـــر صـــعب يتطلب الوقوف على الخصائص الفنية - العامة والخاصـــة - لكـــل لون من ألوان المقالة ، هذا فضلا عن وجوب تتبع عدد كبير جدا من

---

(١) انظرها فى فيض الخاطر : الجزء الأول ص ١٣١ . مطبعة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٥٨ م .

الكتاب المختلفين فى الموضوعات والأشكال الفنية ، وهذا ما لا نريده .

إن الموازنة التى نحن بسبيلها إنما هى بمثابة عرض لألوان المقالات التى درسناها على المدارس الأدبية الحديثة ، من اتباعية ، وواقعية ، ورومانسية ، وغيرها ، وليس من شك فى أن هذه المقالات تنتمى فى كثير من خصائصها غالبا إلى مدارس : (الاتباعية) ، و(الرومانسية) ، و (الواقعية) : الاتباعية فى مقالات التأسيس ، والرومانسية فى المقالة الذاتية ، والمقالة الوصفية ، والواقعية فى المقالة الاجتماعية ، والمقالة النقدية .

إن تيارى (الاتباعية ، والتجديد) بخصائصهما ، لهما سلطان قوى على كتاب المقالة الفنية ، ونحن بدورنا نريد أن نتلمس تلك الخصائص من خلال موازنات فى الموضوع ، أو فى الشكل ، وأن نقف على مجالات الالتقاء أو الافتراق ، وما يتبع كل ذلك من تأثر وغيره .

<u>أولا : فى الموضوعات :</u>

ومن ينظر موضوعات الفن المقالى بصفة عامة يلمس إحساسا بأهمية صلة الأدب بالحياة ، كما يلمس إيمانا بغايات الأدب النبيلة ، وكأن جل هم الكتاب هو ارتباط الأدب بالحياة ، وبالواقع نقدا وإصلاحا ، وهنا نلاحظ ما يأتى :

١ – إن كتاب التيار الابتــداعى (الرومانســى) يهربــون بموضوعاتهم من الواقع إلى الطبيعة ، فيتحــدثون عــن أحاسيســهم النفسية ، ومشاعرهم الوجدانية . أما كتاب التيار الواقعى فيلتزمــون بالواقع ، بل ويسرفون فى الحديث عن هذا الواقع .

٢– الكاتب الواقعى أقوى عنفوانا فى موضوعاته من الكاتب الرومانسى ، وليس يخفى علينا ذلك الذى أشرنا إليه سابقا ، وهو أن من قضايا الكتاب الواقعيين ذات الأهمية – وعلى وجه الخصــوص فى المقالات الأدبية والنقدية – تلك المعارك العنيفة التى خاضــوها من أجل فرض الواقع ، وضرورة فهمه ، بمعنى أن يكــون لــلأدب غاية ، فلا ينفصل الأثر الأدبى عن البيئة ، بل يتواصل مع الناس ، ويرتبط بمسارح تفكيرهم ، ومدار نقاشاتهم .

٣– وترتب على هذا أن تشاءم كتاب المقالة الرومانسية فــى نظرتهم إلى الإنسان والحياة ، والنفس ، وأســرف كتــاب المقالــة الواقعية فى تسخير الأدب لخدمة الواقع ، وفى مباشرة التعبير عــن مشكلات الإنسان فى مجتمعه .

وفى رأيــــنا أن المواءمــة بــين الأمــرين : (الــداخلى ، والخارجى) واجبة ، فلا يسرف المتأثر بالجمال فــى تــأثره ، ولا يهمل الواقعى الجانب المعنوى فى حياته ، لأن الاعتــدال والتوســط إنما هو خير على المجتمع من حيث قضاياه مــن ناحيــة ، وعلــى النص الأدبى من حيث الفنية من ناحية أخرى .

٤ – إن عالم الكاتب الرومانسي يستسلم لخيال الأدب أكثر من ميله إلى الحس ، وكثيرا ما يعتمد على الرمز كسبيل للتعبير عن قضاياه ، بينما يظل الكاتب الواقعي متمسكا بالمباشرة ، وبالإبانة الواضحة البعيدة عن إعمال الذهن ، والجرى وراء الخيال . وفي سياق ذلك يمكننا أن نقول إن الكتابة الرومانسية أقرب إلى روح الفن وأبقى في وجدان المتلقى .

ثانيا : الأساليب

وكما اختلف كتاب الاتجاهين في الموضوعات اختلفوا كذلك في الأساليب ، ويمكن إجمال ذلك فيما يلي :

١ – يميل الكاتب الرومانسي إلى الاحتفال بالشكل ، لأن هذا ينسجم مع نظرته للفن ، وإيمانه بوظيفته الأدبية ، إنه يكتب بوحي من عاطفته ، فمن المهم عنده التفنن في الإطار الشكلي ، والابتكار في الصورة .

على حين يغض الواقعيون النظر عن الاحتفال بالشكل والصورة الأدبية ، ويتوجه الاهتمام عندهم إلى التعبير الخالي من أدوات الزينة غالبا ، فكل همهم هو إيضاح الفكرة ليس إلا ، ولا يكون ذلك إلا بواقعية التعبير .

٢ – يتناول الرومانسيون قضاياهم في أسلوب بعيد عن المباشرة ، وذلك لأنهم على قناعة من أن العاطفة الصادقة هي أساس الأدب ، وأن الابتكار والفن في التصوير إنما يكمنان في إيصال الفكرة وليس في الفكرة نفسها .

٣ – يميل الكتاب الرومانسيون إلى الجرس والإيقاع ، ومن ثم أولوا اهتماما بالغا باللفظة وموقعها من الجملة ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل مقالاتهم الأدبية الذاتية والوصفية أكثر إمتاعا ، بل أكثر تأثيرا .

أما الواقعيون فلا يولون النص شيئا من هذا الاهتمام ، وكل الذى يعنيهم هو قوة الفكرة ، واستنباطها من الواقع ، وحين تصل الفكرة إلى المتلقى فى سهولة ودون أدنى تكلف أو إسراف ، فذلك مبلغ الجودة والتوفيق عندهم .

ولعل فيما قدمناه من حديث عن الموازنة بين المقالات من خلال النظرة إلى المدارس الأدبية ، لعل فى ذلك ما يسهم فى تجلية واقع المقالة الأدبية . واعتقادى أنه من الصعب على أى دارس أن يشير إلى تيار واحد ينتظم طبيعة التجربة عند أديب أو كاتب بعينه ؛ ذلك لأن المذاهب الأدبية التى تردد صداها فى أدبنا العربى على اختلافها ليست مستقلة كل الاستقلال ، ومن الصعب إيجاد حدود فاصلة بينها ، لأنها تتداخل كل التداخل .

ثم إنه ليس من المحتم أن يدين أديب بعينه ، أو كاتب من الكتاب بمذهب واحد فحسب ، فقد تجتمع فى أدبه جملة من المذاهب ، وقد تتداخل وعلى وجه الخصوص إذا كان الأديب موفور الإنتاج .

ومن يدقق النظر فى التيارات والمذاهب الأدبية والفنية الموجودة فى أدبنا العربى يجدها قد تلتقى فى نقاط قد تقل وقد

تكثر ، كما أنه قد يوفق أديب معين بين التيارات ، فيأخذ من هذا وذاك ، وقد يكون من بين الأدباء من لايمكن لباحث — أيا كان شأنه — أن يميز إنتاجه تمييزا على وجه يقال فيه إن هذا الأديب تسير أعماله الأدبية وفق المذهب الابتداعى مثلا جانحا بها عن المذاهب الأدبية الأخرى ، اتباعية كانت أم واقعية ، أم رومانسية ، أم غيرها ، فالأديب الابتداعى قد يستعين بالمذهب الواقعى فى بعض الأحيان ، وقد يعنى الأديب الرمزى بتسجيل المشاعر والتأملات الفردية كما فى الاتجاه العاطفى وإن خالفه فى طريقة التعبير ، وقد يستعين الأديب المحافظ بالاتجاه الرمزى فى بعض الأحيان من ناحية الموضوع .

وقد تحقق هذا بوضوح عند كثير من كتاب المقالة فى أدبنا العربى ، وهذا يؤكد دون أدنى شك أن التجديد فى الأدب العربى لم يكن له مرحلة زمنية تبدأ بنهاية الاتجاه المحافظ ، بل واكب التيار المجدد التيار المحافظ ، وإن غلب عليه وشكل سلطانا وهيمنة أقوى من سلطان وهيمنة المحافظة والتقليد .

وعلى هذا الأساس فما قلناه قبل فى الخصائص والموازنة إن هو إلا كلام تقريبى ، ذلك لأن بعض المذاهب الأدبية الحديثة لم تشكل فى النثر تيارا مستقلا له معالمه وسماته كالمذهب البرناسى (مذهب الفن للفن) ، ومذهب ما وراء الطبيعة (السريالية) ، والمذهب الوجودى ، وغير ذلك من المذاهب التى تسربت فى أشعا

العربى ، وإن تدخل بعض الأدباء بالتغيير فى طبيعة هذه المذاهب ، حتى صارت تغاير المذاهب الغربية فى أصولها ومقوماتها .

ثم إن ملامح هذه التيارات وتلك المذاهب كانت أسرع ظهورا فى شعر الشعراء منه فى أدب الكتاب ، وتفسير ذلك أن الشعراء العرب فى العصر الحديث هم الذين بادروا بتمهيد الطريق للتجديد والأخذ بملامح التيارات الأدبية الحديثة ، فهم فى الحقيقة كشعراء أسبق منهم ككتاب فى التفاعل مع الثقافات الحديثة ، والأفكار الجديدة ، والاطلاع على المدارس الشعرية المستحدثة ، والتأثر بها .

وختام القول أن الذى يعنينا من كل تلك الجوانب الفنية للمقالة إنما هو ذلك المدخل الذى يكشف عن أسباب ومظاهر تفوق كاتب المقالة فى كتابته ، وأنها تقوم أول ما تقوم على تمثيل روح العصر الذى يعيشه الكاتب ، وخروج هذه المقالات مرآة صادقة تتجلى فيها صورة ناطقة لحياة الكتاب ، وهذه الصفة هى التى نتحراها حين نبحث عن صدق الشعور الذى يعبر عنه الكاتب تعبيرا موافقا لطبعه لا تكلف فيه ولا اختلاف .

<u>رأى وختام:</u>

والحق أنه ليخيل إلينا أن أول ما يتبادر إلى ذهن القارئ بعد قراءة هذا الكتاب سؤال تقليدى وهو : ما الحكم العام على فن المقالة فى أدبنا العربى ؟

ومن الإنصاف أن نقول إن كتاب المقالة قد استطاعوا أن يحلقوا فى أسمى أفق الكتابة العربية ، ونحن نقف قليلا لنحكم فى

إيجاز شديد على هذا الفن الكتابى ، وما يستوعبه من تكلف فى طرف وضروب جمال فى أطراف أخرى :

١ – إن تصدى المقالة لمعالجة الواقع جعلها لا تخرج عن المفهوم التقليدى للمقالة ، وهذا أمر قد حد ولو مؤقتا من انطلاق المقالة ، ويبقى إلى الآن بعض الكتاب يتحركون ضمن إطار البيئة المحلية ، وهذا من شأنه يبقى المقالة محدودة دون انطلاق .

٢ – وفيما يتعلق بمشكلة لغة الكتابة نلاحظ أن اتجاه بعض الكتاب فى الفترة الأخيرة إلى المعالجة الرومانسية أمر جعل البعض منهم يستخدمون فى بعض الأحيان اللغة العامية ، وهذا التنازل فى اللغة يجعلنا لا نتسامح مع هؤلاء الكتاب ، لأنهم يصدمون القارئ فضلا عن أهل اللغة من ذلك التباين ، ومن الانتقال من لغة إلى أخرى ، هذا فضلا عن أن العامية لا يعد أدبها رسميا [١] .

٣ – إن اعتماد بعض الكتاب على الواقعية دون تطعيم ذلك بالأصول والقواعد المتبعة عند الواقعيين كمذهب أمر أحد أثره فى السرد الواقعى ، فخرجت بعض المقالات – نتيجة لارتباطها الشديد بالواقع – تمثل ذكريات فحسب ، وهذا أمر أضفى على بعض المقالات صفة المذكرات الشخصية .

---

(١) الأدب الشعبى ، أحمد رشدى صالح ص ٣٠ . مطبعة النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٧١ م .

وقد فات هؤلاء الكتاب أن الواقعية كأسلوب فى التعبير تعنى نظرة الكاتب الشاملة إلى جميع عناصر تجربته ، بمعنى أن الكاتب الواقعى لا يكتفى فى تجربته بلم أجزائها المتناثرة من الواقع المبعثر ، بل لا بد أن يضيف إليها من خياله ما يبرز وجودها ويجعل الواقع فى الفن أكثر غنى وكمالا .

٤ – إن اهتمام بعض كتاب المقالة الوصفية بواقع الحياة جعل المقالة تكتظ بالوصف المكانى الدقيق ، وخصوصا فيما يتعلق بالبيئات الشعبية المحلية ، وجعلها كذلك تعنى بوصف مواد تشكل مادة أساسية للسرد فحسب ، والكاتب يغفل – تحت وطأة الوصف التفصيلى – عن تسجيل أثر هذا الواقع الخارجى على نفسه ، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن الكاتب غير قادر على الاستفادة من المناهج الفنية الحديثة .

٥ – ويمكن أن نلاحظ فى المقالة النسوية أنها تدور فى الغالب الأعم حول قضايا محددة تتصل بطبيعة المرأة ، وهذه فيما نرى دائرة تقليدية .

على أن بعض التجارب النسوية فى مجال الكتابة كانت خصبة ، تستمد قوتها من واقع وصميم الحياة ، وقد أحدثت بعض هذه الكتابات ضجة كبيرة فى عالم الأدب بما تناولته من مواضيع رائعة .

وعلى كل حال فالمقالة العربية قد استطاعت أن تشق طريقها إلى الأفكار والقلوب والأذواق ، وأن تتخطى كل العقبات ، وخرجت

فى معظم مراحلها تمثل الصدق : صدق الإحساس ، والصدق فى التعبير ، وأخذ فن الكتابة يتسع عند عدد غير قليل من الكتاب لنزعات إنسانية رفيعة ، فضلا عن توفر العناصر الفنية ، وأسس البناء .

الأدب الإسلامى والمقالة

يحسن بنا قبل الحديث عن هذا الموضوع أن نتبين موقف الدين الإسلامى من الأدب ، لأن تحديد هذا الموقف هو الأساس الذى أقام عليه منظرو الأدب الإسلامى نظرياتهم ، وهو الأساس نفسه الذى يدعونا إلى إقامة مذهب إسلامى فى المقالة .

وليس من شك فى أن الإسلام يتقبل الأدب ــ شعرا ونثرا ــ ويفسح له فى رحابه مكانا مرموقا ، ويدخله فى رحابه من أوسع أبوابه ، طالما أنه يسير فى إطار الإسلام ، ويغدو سلاحا فى يد الدعوة الإسلامية والدعاة ، ويتحول إلى لسان صدق يدعو إلى الله سبحانه بالحسنى ، ويحض على الخير ، وينهى عن الشر .

ومهما ذكرنا عن الجو الدينى الذى ينشأ فيه الأديب فإننا لا ننسى أبدا ما أحدثه الإسلام من تغيير خطير فى وظيفة الأدب ، وما أحدثه من تبديل فى نظرة الناس إليه ، فهو لم يبقه عند حد المتنفس الذى ينفس به الإنسان عن أحزانه وأشواقه ، أو المتعة التى يتمتع بها الناس فى المجالس والنوادى ، وإنما راح يرقى به حتى جعله ضربا من ضروب الدعوة إلى الله سبحانه والجهاد فى سبيله .

وفى التاريخ الإسلامى ما يفيد أن ولاة الأمر فى المجتمع الإسلامى قد جندوا أصحاب المواهب الأدبية للدفاع عن قيم الأمة الإسلامية ومثلها العليا وفق منهج مدروس ومعد سلفا ، وفى هذا فى الحقيقة وسام فخر وشرف يضعه الإسلام على صدور الأدباء ، ومسئولية كبرى كذلك يلقيها على عواتقهم ، وإشارة واضحة تشير بشكل أوبآخر إلى مهمة الأديب الإسلامى فى بناء المجتمع .

وإذا عرفنا أن الإسلام والمسلمين فى معركة دائمة ومتواصلة أدركنا الحاجة إلى الأدب كسلاح ، وقيمته فى حياة المسلمين ، وأهميته فى بناء مجتمعهم البناء الذى يحقق الغاية التى يهدف إليها دون أن يترك آثارا جانبية ضارة فى منحى من المناحى أو مجال من المجالات .

إن سمو غاية الأدب ، وشرف بواعثه تجعله جديرا أن يفزع إليه المسلمون فى ساعات الشدة ، ويستروحوا به فى أوقات المحن ، فتقوى به القلوب ، وتهتز له المشاعر ، ويمكن أن يرتقى ويرتقى حتى يغدو مما يمكن أن يروى فى الدعوة إلى الله سبحانه ، ولا ريب فقد حدث هذا فى أول عهد الإسلام وفى المواقف العصيبة التى مر بها الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ، بل إنه صلى الله عليه وسلم قد شهد للأدب ممثلا فى الشعر بأن بعضه حكمة ، كما شهد للبيان بأنه سحر .

هذا هو موقف الإسلام من الأدب ، لا يحاربه لذاته ، وإنما يحارب الفاسد من مناهج الأدباء ، وما يقال عن الأدب يقال عن

المقالة ، كما يقال عن غيرها من فنون الأدب الأخرى من أقصوصة ، وقصة ، وخطابة ، وشعر ، وغير ذلك . فالإسلام يريد أن ينهض بهذه الفنون إلى المستوى الذى يليق به ، كما يريد أن يوجه الأدباء الوجهة الصالحة ، ويأخذ بأياديهم لأداء رسالتهم فى الحياة ، كذلك يريد أن ينتشل فئة خاصة من الأدباء مما غرقوا فيه من أدب رخيص .

نظرة إسلامية فى المذاهب الأدبية (١)

وعلى هذا فبين الإسلام والمذاهب الأدبية فروق جذرية عميقة نوضحها فيما يلى :

١ – إذا كان الكلاسيكيون يقصرون أعمالهم الأدبية على الجوانب المادية من حياة الإنسان ، وما يدور حول هذه الجوانب من العواطف والمشاعر ، ويغفلون أو يكادون يغفلون الجوانب الروحية وما فيها من تألق وصفاء – فإن الأدب الإسلامى يعطى للجوانب المادية حقها ، كما يعطى للجوانب الروحية حقها كذلك .

بمعنى أن الأدب الإسلامى أدب واقعى عملى ، يعالج مشكلات المجتمع وقضاياه المختلفة ، كما يعالج أشواق النفس الإنسانية ومطامحها ، وهو أدب يصور الخير والشر ، ويهدف من وراء ذلك على الدوام الترغيب فى الخير والحض عليه ، والتنديد

---

(١) انظر : الأدب ومذاهبه ، وفى الأدب والنقد ، ومحاضرات فى الأدب ومذاهبه ، للدكتور / محمد مندور .

بالشر وترهيب النفوس منه ، أى أن الأدب الإسلامى للناس كل الناس يصور أفراحهم وأتراحهم ، ويعالج قضاياهم ومشكلاتهم .

٢ – والأدب الإسلامى يقوم على الالتزام ويدعو إليه ، ويتمسك به ولا يخرج عليه ، ومن ثم فهو لا يتفق مع غاية الأدب الرومانسى التى هى المتعة النفسية ، والتى تقوم فى الأساس على التحلل من جميع القواعد والقيود ، وعليه فلا بد من أن تتوافلر فيه الفائدة العملية والمتعة النفسية ، بمعنى أن يكون نافعا وممتعا فى وقت معا .

٣ – أما موقف الإسلام من المذهب الطبيعى أو المذهب الفلسفى الذى لا يؤمن بما وراء الطبيعة فإنه موقف يرفع من شأن الإنسان ، ويكرمه ويعلى من قدره ، ويفتح الأبواب رحبة واسعة أمام الأدباء من بنى الإنسان ، ويعبد لهم المسالك ، ويوسع لهم الآفاق ليتناولوا الإنسان بعواطفه وأشواقه ، وآماله وآلامه ، وخيره وشره ودنياه وآخرته ، ولا داعى لإفساد الأدب بالنظريات الفلسفية التى أقحمت فيه .

٤ – أما عن نظرة الإسلام لمذهب " الفن للفن " فإنها تقوم على أساس من أن الأدب الإسلامى أدب هادف ، وأدب أخلاقى ، وجميع فنون هذا الأدب تقوم فى الأساس على الانتفاع المقرون بالإمتاع ، لأن المتعة وحدها تقضى على رسالة الأديب ، وتهبط بقيمة الأدب ، وتحول الأديب إلى إنسان غير ملتزم لا فائدة ترجى منه .

٥ – وعن الرمزية ونظرياتها يمكن القول إن الإسلام رفضها ، لاحتفالها بعقل الإنسان غير الواعى ، إنه يحتفل أشد الاحتفال بالعقل الواعى ، ويدعو الأدباء الإسلاميين إلى أن يجعلوا أدبهم رحب الآفاق .

٦ – وعن نظرة الإسلام لمذهب الوجودية الذي يطلق العنان لرغبات الإنسان ، ويفسح المجال أمام شهواته – يمكن أن نقول إن الإسلام دين يوجه الفرد وجهة تنفعه من جهة ، وتنهض بالمجتمع من جهة أخرى .

وبعد فتلك خلاصة موجزة لموقف الإسلام من أهم المذاهب الأدبية عند الغرب ، أما المذهب الأدبى الذى نسعى إليه ونتطلبه لكتاب المقالة بصفة خاصة ، وللأدباء بصفة عامة فهذا ما سنتكلم عليه فيما بعد .

حاجة كتابنا إلى مذهب أدبى :

اتضح مما سبق أن العالم الذى نعيش فيه تتصارعه تيارات ومذاهب ، واتجاهات مختلفة ، يسعى كل تيار منها إلى بسط نفوذه ومقاومة نفوذ التيارات الأخرى ، وأن هذه التيارات قد قصدت الأدب وسعت إليه ، واتخذته سلاحا تناضل به عن نفسها ، واتخذته كذلك منبرا تعلن من فوقه المبادئ والأهداف التى تطيب لها وتنادى بها ، الأمر الذى يؤكد بما لا يدع مجالا للشك ما للأدب من سلطان وهيمنة .

ومن يمعن النظر فى هذه التيارات وتلك المذاهب يراها – على اختلافها – إنما تنبثق عن نظرة أصحابها إلى الإنسان والحياة ، الأمر الذى يجعلنا نبحث عن مذهب أدبى متميز ينبغى أن ينتمى إليه الكاتب المسلم ، ويقدم من خلاله أدبا نافعا يقاوم به الغزو الفكرى ، ويقف فى وجه التيارات الجارفة التى كثيرا ما نتعرض لها فى هذا العصر .

إن أدباءنا فى العصر الحالى بحاجة ماسة إلى أدب إسلامى معاصر يواكب حياتنا ويعبر عنها ، ويعالج أوضاعنا الحاضرة ، ولا شك أن هذه الدعوة قد دعا بها وتبناها نخبة من أعلام المسلمين وأدبائهم النابهين ، وأملنا كبير فى أن تلقى هذه الدعوة صدى فى نفوس كتاب المقالة بصفة خاصة والأدباء بصفة عامة .

إن الأدب الإسلامى ليس مقصورا على الموضوعات الدينية ، وإنما هو تعبير فنى هادف ينطلق من واقع الحياة والكون ، وينبع من التصور الإسلامى للكون ، وهو تصوير يهز مشاعر الأدباء والشعراء ، ويفتح أمامهم الآفاق لإبداع ألوان من الأدب نعتمد عليها فى أدبنا الإسلامى المنشود .

<u>الخصائص العامة للأدب الإسلامى :</u>

للأدب الإسلامى خصائص تميزه عن غيره من الآداب ، ويمكن تحديد هذه الخصائص فيما يلى :

أولها : أنه أدب أصيل ، بمعنى أن أدب الأديب إنما ينصب على الأصيل من خصائص أمته .

ثانيا :الأدب الإسلامى أدب ملتزم [١] ، وهو التزام ينبع من أعماق الأديب نفسه ، ويعد مقوما من مقومات وجوده ، والأديب الإسلامى الملتزم اليوم لا يختلف من حيث اتجاهاته الفكرية ومثله الأخلاقية ، ومقاييسه الجمالية عن الأديب الإسلامى الملتزم فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والصحابة رضوان الله عليهم .

ومناط الالتزام فى الأدب الإسلامى ليس الموضوع فقط ، وإنما هو الدوافع والبواعث التى بعثت على تبنى موضوع معين ، والغاية التى يرنو إليها الأديب من معالجته ، ومن هنا ففى وسع الأديب المسلم أن يجند طاقاته الفنية لتصوير حالاته النفسية وانفعالاته الوجدانية ، كما أن فى وسعه أن يجند هذه الطاقات لنفع المجتمع .

ثالثها : أن الأدب الإسلامى أدب هادف ، لا يجعل الأدب غاية لذاته كما يدعو أصحاب نظرية " الفن للفن " .

رابعها : أنه أدب متكامل تتآزر فيه عناصر المضمون مع عناصر الشكل ، فلا يستطيع المضمون وحده أن يبدع أدبا إسلاميا رفيعا ، ولا كذلك الشكل .

---

(١) انظر : مجلة الأدب الإسلامى ، العدد الرابع والعشرون ١٤٢٠ هـ ص ١٢ وما بعدها .

خامسها : أنه أدب يتميز باستقلال الشخصية الأدبية لصاحبه ومبدعه ، وعلى هذا فهو أدب فعال ومؤثر ، ينبغى أن يقدره الدعاة إلى الله سبحانه حق قدره ، وأن يعطوه ما يستحق من اهتمام .

إنه ليس فى وسع أى أحد مهما كان شأنه ، ولا فى وسع غيره أن يعزل المقالة الإسلامية عن الحياة بعد أن أصبحت تجرى مع الأثير ، وتطلع علينا ليل نهار فى الصحف والمجلات والكتب .

إن الذين يقرأون المجلات الإسلامية ، ويستعرضون الآثار الفكرية والأدبية التى ينتجها الأدباء الإسلاميون يجدونها تقوم على المباحث الفكرية البحتة ، ويجدونها كذلك توجه شطرا كبيرا من جهدها للرد على الدعوات العصرية التى هى الشغل الشاغل لأعداء الإسلام .

إن كتاب المقالة الإسلامية قد آمنوا بمقالاتهم كسلاح فعال ، فأولوها ما تستحق من اهتمام ، وقدروا آثارها الخطيرة ، كما قدروا كذلك الأضرار البالغة التى تنجم عن إهمال هذا السلاح .

أهداف المقالة الإسلامية :

المقالة الإسلامية فرع من دوحة الأدب الإسلامى ، والأدب الإسلامى الذى ندعو إليه له أهداف عامة تلتزم بها المقالة ، كما تلتزم بها سائر فنون هذا الأدب .

وهذه جملة من أهداف وغايات المقالة الإسلامية ووظائفها التى ترمى إلى تحقيقها :

١ – تحرص المقالة الإسلامية على ترسيخ العقيدة الإسلامية ، أى تقديم فلسفة إيمانية ترسخ عقيدة الإيمان بالله ، وما يتفرع عنها من إيمان بالملائكة ، والكتب ، والرسل ، والغيب ، والبعث ، والثواب والعقاب ..

٢ – ثم إن من وظائف المقالة الإسلامية أيضا الانتصار للخير فى صراعه الدائم مع الشر ، ومعالجة الأمراض الخلقية ، والانحرافات الاجتماعية التى تجتاح بعض المجتمعات .

٣ – ومن وظائفها كذلك معالجة مشكلات الشباب العصرية وعلى رأسها الفراغ والقلق ، وذلك بالتوجيه وببث الطمأنينة فى نفوسهم إلى الثقة بالله سبحانه ، وحكمته البالغة ، والإيمان المطلق بالقضاء والقدر ، خيره وشره ، حلوه ومره .

٤ – وإن من أهداف المقالة الإسلامية كذلك ترهيب المنحرفين الضالين وتخويفهم من مغبة الانحراف والضلال ، والقيام مع كل هذا بتوضيح العواقب لهم .

٥ – والمقالة الإسلامية تنفذ إلى أغوار النفس الإنسانية ، وتكشف مكامن القوة والعنف فيها ، ونوازع الخير والشر التى تتداولها ، والغرض من ذلك كله إنما هو توجيه الإنسان وإرشاده لكل ما فيه الخير والصلاح .

الفصل السابع

الوحدة اللغوية التي تشكل المقالة

الإنسان فرد في المجتمع منذ أن هبط آدم وحواء إلى الأرض وكونا نواة المجتمع الإنسانى ، ومن هنا يمكن القول إن الإنسان خلق اجتماعيا ، ولا يمكن التصور أنه يعيش فى معزل عن بنى جنسه ، فهو عضو فى المجتمع الإنسانى ، يشارك أفراده معتقداتهم ، وقيمهم، وسلوكهم .

وقد منح الله سبحانه الإنسان موهبة كبرى ، بها يتعرف على الجوانب المهمة والمتعددة فى حياته ، تلك الموهبة هى اللغة التى يتحدثها ويكتبها ، والتى تحتل الجزء الأكبر من نشاطه اليومى على الإطلاق ، وقد اكتسب الإنسان هذه اللغة منذ طفولته ، فكان لها أهم دور فى حياته ، وصارت الوسيلة الأولى لاتصاله مع أفراد المجتمع.

واللغة التى نتحدثها أو نكتبها هى وسيلة الاتصال بين أفراد المجتمع ، وعن طريق اللغة يتم هذا الاتصال سلوكيا كان أم فكريا أو وجدانيا . قال تعالى : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ...) (١).

---

(١) الحجرات : آية ١٣ .

وعن طريق اللغة يعبر الإنسان عن تجاربه ، ويستفيد من تجارب الآخرين ، وعن طريقها يتصل الإنسان ببني جنسه ، وينصهر الفرد فى المجتمع حتى يصير المجتمع كلا متجانسا ، وعن طريقها كذلك يتصل الفرد بتراثه فى الماضى ، وهكذا حتى يصبح كل جيل متصلا بغيره من الأجيال .

واللغة العربية هى أمتن اللغات ، وأوضحها بيانا ، وأزلقها لسانا ، ومن ثم اختارها الله سبحانه وتعالى لأشرف رسله ، وخاتم أنبيائه ، وخيرته من خلقه ، وصفوته من بريته ، وجعلها لغة أهل سمائه وسكان جنته ، وأنزل بها كتابه المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أما عن خصائص اللغة العربية فنحن نقول إن خصائص أى شىء هى ما انفرد به دون غيره من صفات أو مزايا . وصفات كل شىء ومزاياه إنما تكون بحسبه وبحسب ما يراد له ، وخصائص اللغة حينئذ لا بد أن تكون مزايا وصفات لها من حيث هى لغة سواء كانت فى مفرداتها من حيث التركيب والغزارة مثلا ، أو فى معانيها من حيث الإصابة والدقة ، أو فى العلاقة بين الألفاظ والمعانى من حيث الارتباط والتناسب ، أو فى الأساليب من حيث سعة التصرف والقدرة على ملاحقة وجوه المعانى ودرجاتها ، ففى كل هذه الخصائص وتلك الميزات تفردت اللغة العربية وفاقت أخواتها ، فقد ظهرت كاملة من غير تدرج ، وبقيت حافظة لكيانها حتى إنه لا يعرف لها فى كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة .

وهذه الخصائص وتلك الميزات هى التى ميزت اللغة العربية وهى التى فضلتها على سائر اللغات ، من حيث إن تلك الخصائص تعد تفصيلا أو بيانا لوجوه التفضيل عند الاحتكام إلى المعايير اللغوية ، وهذا كلام شاع القول به عند القدماء ، فقد أرجع كثير منهم الفضل إلى معايير لغوية ، ومن أرجعه منهم إلى معايير نقلية أو دينية لم يجحدوا المعايير اللغوية (١) .

وفى القرآن الكريم ما يدل على أن لغتنا العربية هى أفضل اللغات وأوسعها . ومن ذلك قول الله تعالى :

(وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين)(٢).

فوصف الله سبحانه وتعالى اللغة بأبلغ ما يوصف به الكلام ، وبأبلغ ما توصف به اللغة وهو البيان ، كما وصف الله اللسان الذى نزل به القرآن الكريم بأنه عربى مبين .

و قال جل ثناؤه " الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان " (٣) .

(١) انظر : تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة ص ١٢ ، والخصائص لابن جنى ١ / ٤٧، والصاحبى لابن فارس ص ١٦ ، والمزهر للسيوطى ١ / ٣٢١ ، ومقدمة فقه اللغة للثعالبى، وسر الفصاحة للخفاجى ٤٨ – ٥٧ .

(٢) الشعراء : الآيات ١٩٢– ١٩٥ .

(٣) الرحمن : الآيات ١ – ٤ .

فقد قدم جل ثناؤه ذكر البيان على جميع ما توحد بخلقه وتفرد بإنشائه ، وخص جل ثناؤه اللسان العربى بالبيان ليعلم أن سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه أى أن وصف الإبانة منصب على اللسان العربى ، فاللسان العربى يتميز بالإبانة أى التوضيح والتمييز التام لما يعبر عنه.

ولا شك أن صفة البيان هذه إنما هى أعظم صفة يمكن أن تتصف بها لغة ما ، لأن الإبانة عما فى النفوس وعن الأشياء هى الوظيفة الرئيسية للغة ، وتحقق هذه الصفة فى لغة ما يعنى كمال هذه اللغة وصلاحيتها لأداء وظيفتها.والعربية هى " اللغة التامة الحروف ، الكاملة الألفاظ ، لم ينقص عنها شيء من الحروف فيشينها نقصانه،ولم يزد فيها شيء فيعيبها زيادته، وإن كان لها فروع أخرى من الحروف فهى راجعة إلى الحروف الأصلية " (١) .

والتحرير الأدبى هو فن الكتابة الصحيحة ، وبه وحده يتمكن الكاتب أى كاتب من الصياغة المحكمة التى تؤدى المعنى المراد التعبير عنه .

ولسنا فى حاجة إلى الإبانة عما يحققه التحرير الأدبى من فوائد للدارسين والباحثين ، إنه ينمى ملكاتهم ، ويمكنهم من التعبير

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى : ١ / ١٤٩ ، مطبعة كوستا توماس ، القاهرة .

عن أفكارهم ، حتى يستطيعوا أن يخلدوا علومهم لمن بعدهم ، وقديما قالوا : "الأمم التى ليس لها كتاب قليلة العلوم والآداب " .

والتحرير الأدبى هو الذى يعين الأديب من الأدباء على تأليف القطعة الأدبية وفق فنون الكتابة الإبداعيـــة المختلفـــة ، كالشـــعر ، والقصة القصيرة ، والقصـــة الطويلـــة ، والروايـــة ، والمقالـــة ، والمسرحية ، والسيرة الذاتية ، وما إلى ذلك .

ولقد خلق الله الإنسان فى أحسن صورة ، وميزه بملكة هائلة وهى العقل الذى به يفكر ويتدبر ويتأمـــل ، ويفاضـــل ، ويحـــاور ويناقش ، ويصدر قراراته ، وإرشاداته ، وما إلى ذلك .

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى مزية العقل فقال :

(يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبيـــر ومنـــافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) [١] .

وقال تعالى :

(كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) [٢] .

وقال تعالى :

(إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليـــل والنهـــار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم

---

[١] البقرة : ٢١٩ .

(٢) البقرة : ٢٤٢ .

ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هـذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) [١] .

وقال تعالى :

(قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون) [٢] .

وقال تعالى :

(بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) [٣] .

وقال تعالى :

(لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) [٤] .

---

(١) آل عمران : ١٩٠، ١٩١ .

(٢) الأنعام : ٥٠ .

(٣) النحل : ٤٤ .

(٤) الحشر : ٢١ .

الخاتمـــــة

بســـم الله الرحمن الرحـــيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلـــى آلـــه وأصحابه ومن اهتدى بهداه واستن بسنته وبعد :

فلقد تتبعنا نشأة المقالة منذ أن وجدت فى الأدب العربى ، ثـــم استعرضنا موضوعاتها المختلفة ، واستقصينا خصائص كل لون من ألوانها فى دراسة وافية تراعى ثلاثة جوانب : (الجانب التاريخى ، والجانب الموضوعى ، والجانب الفنى) .

والحقيقة التى لا يشك فيها أحد أن فن المقالة ســـيظل ميـــدانا واسعا ورحبا للدراسة والبحث ، وسيظل الباحث الأدبى يتتبع مراحل المقالة التاريخية والموضوعية والفنية ، وذلك لأهميتها فـــى حياتنـــا الفكرية والثقافية ، فضلا عن إعطائها دلالـــة تاريخيـــة واجتماعيـــة وثقافية على إسهام الكتاب فى تكوين الوعى والارتقاء بالمفهومـــات الحضارية المختلفة .

وسيظل ميدان فن المقالة مفتوحا أمام كل باحث ليطرق ما لم يطرق من الموضوعات ، أو ليحلل ما يحتاج إلى إمعان نظر وطول تأمل ، الأمر الذى يرفع من مستوى المقالة بعامة والمقالـــة الأدبيـــة بخاصة .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

فهرس الموضوعات